كاظم جهاد

مِعمار البراءة

قصائد

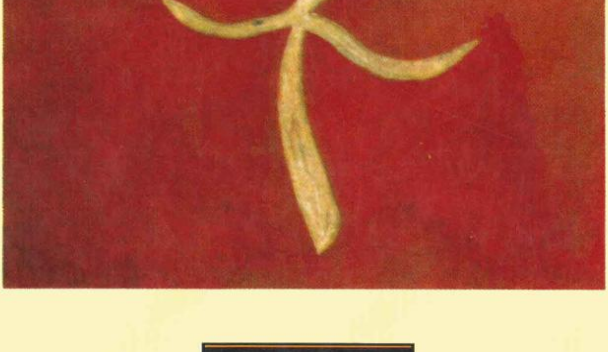

مكتبة
الفكر
الجديد

منشورات الجمل

شعر

كاظم جهاد: مِعمار البراءة

مكتبة
الفكر
الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

كاظم جهاد

مِعمار البراءة

قصائد

منشورات الجمل

مكتبة
الفكر
الجديد

ولد كاظم جهاد في ريف الجنوب العراقيّ في ١٩٥٥. أكملَ دراسته الابتدائيّة والثّانويّة في مدينة الناصريّة، ويقيم في فرنسا منذ ١٩٧٦، إقامة تخلّلها فاصل سنة واحدة أمضاها في برلين الغربيّة سابقاً (١٩٨١) وفاصل زمنيّ أطول أمضاه في مدريد (١٩٨٥ ـ ١٩٨٦). يعمل حاليّاً في التّعليم الجامعيّ بباريس. نشرَ العديد من الدراسات النقديّة والترجمات الأدبيّة والفكريّة باللّغتين العربيّة والفرنسيّة. من الكتّاب الغربيّين الذي اشتغل على نصوصهم مترجماً وقارئاً دانتي أليغييري وآرتور رامبو وراينر ماريا ريلكه وجيل دولوز وجاك دريدا وجان جينيه وخوان غويتيسولو وفيليب جاكوتيه. وممّا عالجَ نقديّاً بالفرنسيّة وساهم في ترجمته إليها قصص الكرامات والبناء الفنيّ للمعلّقات وشعر السيّاب وشعريّة الترجمة عند العرب. أصدر في ١٩٩٩ مجموعة منتخبة من أشعاره المتناثرة في المجلاّت الأدبيّة تحت عنوان «الماء كلّه وافدٌ إليّ» (المؤسّسة العربيّة للدراسات والنّشر، عمّان ـ بيروت)، وتُرجِمَ عدد من قصائده ومقالاته إلى بعض اللغات الأوربيّة. (لدواعٍ تتعلّق بالأوراق الثبوتيّة يوقّع كتاباته الفرنسيّة منذ فترة بالاسم الثلاثيّ كاظم جهاد حسن، فاقتضى التنويه).

كاظم جهاد: مِعمار البراءة، قصائد

الطبعة الأولى ٢٠٠٦

كافة حقوق النشر والترجمة والاقتباس

محفوظة لمنشورات الجمل، كولونيا (ألمانيا) ـ بغداد ٢٠٠٦

© *Al-Kamel Verlag 2006*

Postfach 210149. 50527 Köln. Germany

Tel: 0221 736982. Fax: 0221 7326763

E-Mail: KAlmaaly@aol.com

مكتبة الفكر الجديد

ديباجة

إلى أُمّي أدين بهذه القصائد. فبأسئلتها وتداعيات ذكرياتها المديدة أعادتني هيَ إلى الشّعر. ومنذ التقينا ثانيةً في عمّان بعد فراقٍ دامَ ربع قرنٍ، راحتْ تستنهض فيَّ معرفةً كنتُ حسِبتُها منسيّةً لجغرافية العراق الفعليّة والخياليّة.

وإذا كنتُ تحدّثتُ، في العنوان وفي إحدى قصائد هذه المجموعة، عن مِعمارٍ للبراءة، هذه الصّيغة التي قد يبدو طرَفاها للبعض شديدَي التّصادم، فلأنّ البراءة، في عُرفي، ليستْ بالحالة البسيطة المُعطاة للكائن جزافاً. بل هي تفترض بناءً مطّرداً، وأمام مشاريع العالَم، السّوداء في الغالب، تنشئ البراءة عمائرها وتمضي باحثةً عن نقاوةٍ تريدها هي أكثر فأكثر نقاوة. يمكن أن تكون بعض عمائرها مكتنفةً بالأوهام، وفي هذه الحالة يكون النّضال ضدّ الأوهام القاتلة، والتشبّث بالأوهام الجميلة، خيالات الكائن الفقير الباحث عن موضعه الفقير، إحدى مهامّها. هكذا تكونون يا أصدقائي أدركتمْ مرمايَ البالغ البساطة: البراءة في عملٍ أبداً. لها، في جميع لحظات الوجود، شُغلها الشّاغل.

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

I

مِعمار البراءة وقصائد أُخرى

(٢٠٠٠)

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

عــودة

هوَ ذا أبلغُ البساطةَ الهانئة
لا رغبةَ لديَّ في سرْد أهوالِ الرّحلة
(لمَ يا ترى أكبحُ وثبتي هذه
بِحسابِ سنوات المَحْل؟)
محطّة مسافرين
تدوّي بنداءاتِ متعارضة
كذلكَ كانتِ الرّوح
في تلك الأعوام حيث كنتُ أتمشّى
في العراء
صُحبةَ ما ليسَ يُجدي نفعاً.

ومن الأخطاء المتجاوَزة
إلى أنصاف الحقائق
المهموس بها همساً

مكتبة الفكر الجديد

لن يُعرِب صوتي عن أيّ غيظ
سأقول فحَسبُ
إنّ خوفاً تلبّسني
ولسنواتٍ لا تُعَدّ
جعلَني أَرْهَبُ حقيقةَ أيّامي.

مكتبة
الفكر
الجديد

جلود مستعارة

زمنٌ رائعٌ أمضيتُه في عدَم فعلِ أيِّ شيء. مراراً ارتديتُ جِلْداً لم يكن هوَ جِلدي. بفضلهِ كنتُ أحسبُ أنني سَأقوى. أُراوحُ في مكاني وأقول: «للّحظة الرّاهنة هذا يكفي». تارةً كان الجِلد مفرط السّعة حتّى ليَهبني مرأى بهلوان. وطوراً كان من الضّيق بحيث أنّي، كي أُخرجَ أحدَ أعضائي، كان عليَّ أن أقوم بحركاتٍ غريبةِ والتواءاتٍ فنيّة. «نضالٌ من أجل الكيان»، كنتُ أقول بنبرةٍ فيها بعضُ تفلسفٍ.

الآنَ ينتظرني الجهدُ الأعظمُ، الوثبةُ العاليةُ التي تعيد رتْقي من عدَمي وتغطّي عُريِي وتهَبني أنْ أكون.

مكتبة الفكر الجديد

عراقيّون

عاثرينَ وسطَ فخاخٍ من الظّلام
كذلكَ كنا
دائرينَ طويلاً حولَ العالَم
بإزاء هامشِهِ المُزنّر بالأحداث.

فكرتنا عن الخطيئة
كانت مبتسرةً وغامضة
وليسَ تحتاج إلى شروح.

عندما يخطو الواحدُ منّا
فَطويلاً كانَ يتحقّق
من أنّه على حُلمِ جارِه
لا يدوس.

مكتبة الفكر الجديد

في رطانتنا اليوميّة
لم يكن التّفاهم ضرورياً
كان ينبغي بأيّ ثمَنٍ
إحداثُ ذلك الصّفير
المتموّج
الذي به يُذكِّر واحدُنا
بوجوده.

فجأةً ارتطمْنا باليابسة
كانَ ذلك
كمثَل سقوطٍ في الدّيمومة
غطسةٍ في الزّمن، نعاسٍ دونَ انتهاء.

طويلاً سنحفظ
ذلكَ الصّفيرَ المتعالي والزّمنَ الرّخو
نحتسيه بملاعقَ رجراجة.

طويلاً سنحفظ
ذهولَ المارّة

مكتبة
الفكر
الجديد

يومَ جَعلنا ننتشل الهواء
بِمَلاقِط
مُحْدِثين
غراباتٍ كانتْ ببساطة
شاكلتنا في ألاّ نكون.

مكتبة
الفكر
الجديد

هجـرات

كان ينبغي أنْ نبلغ النّبع دونَ أن يضحّيَ بقرينهِ أحد. كان ينبغي أنْ نهدرَ وسطَ العاصفة بجلاءٍ أكبر. كان ينبغي أنْ يتخلّص الشّعراء من جلاّدٍ كان ما برحَ في داخلهم يعمل. كان ينبغي الاحتفاء بصيحات أمّهاتنا يودّعننا على أعتاب مستقبلٍ يمتدّ أمامَنا كاللّيل البهيم. كان ينبغي أنْ يتكوّر القلب نفسه في شكلِ قاربِ أريافٍ يُبحر في ظلمات الدّنيا دونَ التفات. كان ينبغي الاحتفاظ بالصّحو كلّه.

مكتبة الفكر الجديد

شتات

جالسٌ في الأصيل ألملمُ شَتاتي. ينبعثُ الماضي من جمرةٍ في الفؤاد لا تخمد إلاّ لتشتعلَ بأوارٍ أكبرَ وعافيةٍ أشدّ. الماضي المفعم بروائح الطّلع وتنهّدات النّسوة يُخرجنَ للرّب أثداءهنّ ضراعةً وسخطاً.

في تنّورٍ مطفأٍ اختبأتُ ذاتَ ظهيرةٍ أستنشقُ الرّمادَ باحثاً عن شفاعة الهواء. في ظلمته الغامرةِ نضجتْ روحي وانفلقتْ في الفضاء مثلَ ثمرةِ رُمّان.

وفي غفلةٍ من الملائكة نبتَ لي من شدّة الوجد جناحان. منذُ ربع قرنٍ وأنا أجابهُ صخبَ المارّة وجحودَ الأصحاب بخفقِ هذين الجناحين، خفقٍ ميمونٍ لا يهدأ إلاّ ليُعاودَ الانطلاقَ بأوارٍ أكبرَ وعافيةٍ أشدّ.

مكتبة الفكر الجديد

نقاهة

متماثلٌ للشّفاء منذ أربعين عاماً
لا أعرف طبيعة الإصابة
أتذكّر فَحَسْبُ
صباحاً لا كسائرِ الصّباحات
أجهشتْ فيه تلكَ المرأة
بالبكاء أمامي طويلاً.

كانت المرأة تبكي وتبكي
من ألمٍ فريدٍ في إبهامه
إلى الأبد مدًّ فيَّ جذرَه.

يا له ألماً كمثل حرْبة
تُجوّف القلبَ تارةً وطوراً

مكتبة
الفكر
الجديد

تنحته كأرغنٍ حديديّ

يرنّ في كنائسَ تتكاثر

بلا عَدَد.

مكتبة
الفكر
الجديد

غرفة

الغرفة مطلّةٌ على العراء. ولكي أعرفَ جيراني المحتملينَ عليَّ أن أعبرَ فراغاتٍ بالغة الوعورة. وإلى رحابة الفضاء ينضاف خجلي.

الحيطان منجَّدة بصوَر طرادٍ وشعائرَ لأتباع باخوس. مُقَل الحيوان فيها وعيون السّادة ذاتُ لَمعان. بكلّ صورةٍ ألصقتُ ذكرى إنسانٍ كنتُ عرفتُه في عهدٍ أو آخرَ من تاريخي. يكفي أن أتملّى ملامحَ الشّخوص حتّى يكتملَ محفلُ أقراني كلّ ليلة. بحرارة التّوق أبتعثُ مصائرهم. ثمّ أروحُ أعزفُ وأجولُ، طبّالاً في الجوقة، عريساً في المشهد. عندما يتعب الرّفاق أهيّئ الفرُشَ وأنام، محاطاً بأروماتيَ النّادرة وسلالاتي.

يكفي أن أتذكّر أنّ هذه الجموعَ الفيّاضة حناناً إنّما هي مِن صنْع برَمي بالعزلة حتّى يتخلّى المشهد عن كاملِ بهائه ويخلوَ من سكّانه. لكنّ براعة مكتسبة في تأثيث الفراغ تجعلني أفلتُ من فخّ هذه الخاطرة في كلّ مرّة. وأنا أحرص على تقويةِ الوهم، فيهِ يكمن كلُّ خلاصي.

مكتبة الفكر الجديد

هزيمة النّسر

لدقائقَ طويلةٍ تقبع الفريسة بينَ مخالب النّسر. بقدرِ ما يُضاعف النّسر طعناته، ثملاً بالنّصر، تتأمّل هيَ اكتنازَها بالألم وتشعر بأنّها غير قابلةٍ للانتهاك. كلّ واحدةٍ من خلايا جسدها تعزف قدّاسَ احتفال. من زمنٍ وهيَ تجاور الخطرَ، مغويّةً باجتياز الخطّ الفاصل بينَ نعمةِ أنْ تكون وفداحةِ ألاّ تكون. عندما يكتمل التهامُها من لدن النّسر، يرسمُ الفضاء بالدم لطائفَ من المعنى يعجز النّسر في تسارعِ البطش عن أنْ يُدركها. وهنا بالذّات مَكمن هزيمتِه.

مكتبة الفكر الجديد

طفولة (١)

كانَ في دارنا سلّمٌ يقود إلى السّطح. سلّمٌ حلزونيٌّ متراكبٌ والعراءَ، كنتُ أجتازه كلّ صباحٍ، ذهاباً وجيئةً، ناشداً الالتحام في نهايته الفاغرة بمطلَقٍ ما. كانت درجاته الأربع والعشرون تحتضن تعبي. العنكبوت خاط فيه بيوتاً كنتُ أرى فيها صوىً ومراحلَ لطقسٍ تلقينيّ. درجةٌ تلوَ أخرى، كان قلبي يتقصّف وخطواتي إلى الشلل تجنحُ: كنتُ ظامئاً لمطلَقٍ ما، شيءٍ يتجاوز انتظاري ويطوّح دفعةً واحدةً بجميع حدودي. عندما أصل إلى السّطح تنبسط السّماء حبلى بكوارثَ أصليّةٍ وشمسٍ أليفة. منارة عالية تُجامع سربَ غيومٍ، وحبال الغسيل تعرض على بصري الجاهلِ أسرارَ حيَواتٍ تُعاش حتّى الثّمالة كنتُ أتخيّل في عطيّة الصّباح روائحها المنتشرة. مرئيّاً من علٍ، يفرش الفرات بساطاً من اللاّزورد والزّبَد اللاّمع. كنتُ ولا شكّ أستعجلُ مصيري. طفولةٌ بلا أحداثٍ كانت توهمني بأنّ لي في مسرح الطّبيعة مكاناً.

مكتبة الفكر الجديد

أعود ولمّا أقبضْ على شيء. لكنّ هاجس المطلق، غير المتعيّن والممكن مع ذلك، يواصل همزَ خيالي. فأعود لاستفزازه كلّ صباحٍ، محميّاً ببراءتي وامتداد أملي.

مكتبة الفكر الجديد

طفولة (٢)

ولدتُ في منزلٍ واسعٍ كان فيه باحةٌ تتوسّطها بئرٌ ونخلة. يخرج الكبار للعمل فأظلّ وحدي. المنزل الواسع يتحوّل أمام نظرتيَ الطفليّة عالَماً هائل السّعة، كوناً يتعذّر عليَّ أن أحيط بقارّاته المترامية ومَداخله المجهولة. لم يكن يقاسمني سكناه طيلة النّهار سوى سربٍ من النّمل هممتُ بالتطلّع إليه وهو يكدح. كنتُ أودّ لو أصغر بحيث أنفذ وإيّاه إلى ملاجئه المؤثّثة في شقوق الحيطان وأرى ما يدور في تلكَ العوالِم.

ذاتَ يومٍ، بغباء الطّفولة وساديّتها الفطريّة، أغرقتُ النّمالَ بحفنةٍ من الماء. وإذا بها تعوم على صفحة الغدير المرتجَل متحدّيةً وباسلة. بلا هوادةٍ، كانت أفواج النّمال تواصل تقدّمها. فأعود إلى داخلي لأطلعَ منه بحقيقة جديدة سرعان ما تصطدم بحدودٍ وعوائق. كان غياب الآخَر يفرض على مخيّلتي التّعبى سدوداً منيعة.

مكتبة الفكر الجديد

وحدها الشّمس كانت تتلطّف وتؤازر ضمورَ خيالي. بخيوطها الذهبيّة تنسج لي سلالمَ أرقاها إلى مطلقٍ من الجَمال يتعذّر الآنَ أن أبوحَ عنه ببنتِ شفة.

مكتبة
الفكر
الجديد

الذكرى

تسكن الذّكرياتُ في القلب ثلاثينَ عاماً
وبعدَ ذلك تتفتّح
وردةً جليّةً من الدم.

تتوالد الذّكرياتُ من أحداث
ربّما لم تُعَشْ. تتوالد من حالات
مبهمةٍ وتشير في كلّ مرّة
إلى ماضٍ أزليّ
كان هذا الجسدُ يمتحن فيه نفْسَه
يُعايشها كما نفعل
في حضرةِ كائنٍ غريب
نبالغُ عن دماثةٍ توقيرَه.

بدأبِ خيّاطٍ أعمى

مكتبة
الفكر
الجديد

ينسج القلبُ كآبته
وشيعةً كبيرة
تتفرّقَ في كلّ وجهة
ثمّ تلتمّ حولَ محورٍ غير مرئيّ.

كطائرٍ حديديّ
يُحوّم السأمُ حولَ إهابِ هذه القصيدة.

مكتبة
الفكر
الجديد

أبـــواب

ليس يعرف ما تتخفّى عليه الأبواب. أبوابٌ مفتوحةٌ على الفراغ، يحلم لو أطلّ منها على الهاوية، مُمعناً في تهجّي أشياءَ غايةٍ في الصّغَر قابعةٍ هناك، في قاعٍ يتغوّر على مدى النّظر، ومنه تصّاعدُ أعمارٌ مجتازةٌ على عجلٍ ومصائرُ مبتورة.

أهيَ غواية الموت أم هذه الرّغبة المتجدّدة في أن يعتنقَ الحياة مثلَ ديانةٍ يتخيّرها المرء دونما سؤالٍ هي ما يشحذ فيه محبّة الهاويات، واقفاً هكذا على حافّة الخطر، متحاشياً السّقوطَ في اللّحظة الأخيرة، هائماً بتوازنه الصّعب كمثْلِ بهلوانٍ من نمطٍ جديد؟

مكتبة الفكر الجديد

أجفان الوردة

أجفان الوردة تبدو غامزةً في اتّجاه دهليزٍ يحسب الصبيّ الشّائخُ أنّه لو تبعَه لاستردَّ على الفور عافيةَ أحلامه وحُميّا صِباه وأملَه المخيَّب ذاكَ كلّه.

ما يقبع يا ترى في نهاية الممرّ؟ أيّة خديعةٍ تكشّر عن أنيابها، أيّ انخطافٍ، أم أيّ حبّ؟

مكتبة الفكر الجديد

فتــوّة

راغبٌ أنا في استعادةِ وتائر شبابي
كحصانٍ جامحٍ كنتُ بالأمس أعدو
في حقول
بسطَها على المدى الرّحب نظري وحدَه
كنتُ أتدفّق كشلاّلات
وُلدتُ من خياليَ الطّموح
بأصابعي كنتُ أشعشعُ الرّمال
وعلى المشاهد الجارحة
كنتُ أسدلُ ستارَ حياتي
كنتُ في الطّلع أنبتُ ومع النّخل أسمو.
متخيّراً نخلةً فريدةً بين نخلاتِ أهلي
في المساء كنتُ أسرّ لها بحكايات
تورق في الصّبح وعلى السّابلة تمطر

مكتبة
الفكر
الجديد

سلاماً وبرداً

كان كلامي يطنّ فيّ

كالنّحل النّاضج في القفير عسلُه

وعلى الكون دائراً يفيض

كنتُ لا أكثرَ من حكايةٍ تسير

وفصائلُ الورد كنّ يتآخينَ عندي

كنتُ في مسارّةٍ وكلُّ شيء

ومن التّطامن بحيثُ أنّي

غالباً ما أجهلُ أنّني أكون.

مكتبة
الفكر
الجديد

إلى رفيق

كنتَ كالنّجم في عبورِكَ العميق. سمّيتَ نفسكَ حيدرَ عندما انضممتَ إلى صفوف مقاومةٍ فلسطينيّةٍ لا تحمل فيها من سلاحٍ سوى هذيانكَ الجنوبيّ وضحكتكَ نصف البلهاء ونصف مركّزة الصّحو. كنتَ على الدّوام عاضّاً بنواجذكَ على مَهاناتٍ ماضيةٍ وقارّاتٍ قادمةٍ لن تبدوَ كافيةَ السّعة لصهيلكَ البريّ وأخطائكَ الممعنة في الابتكار والشّعر. حفظتَ محتويات مجلّة «شِعر» بكاملها، وكانت هذه كلَّ ثقافتك. خلطتَ صفحاتٍ من شعر ريلكه بـ«مهنة العَيش» لپافيزه، وتزوّجتَ، لتهجرَ الزّوجة والطّفلَ، معتصماً بحقيقةِ أنّكَ أنتَ الطّفل الوحيد في هذا العالَم الذي قلّما يراجع أخطاءه. في باريسَ، سرقتَ مرّةً دجاجةً من على سيخها الملتهب، ورحتَ تعدو في الطّرقات، تلفح أصابعكَ سخونةُ الشّواء وتنهال على مؤخّرتكَ عصا البائع التونسيّ المسروقةِ دجاجتُه. وذاتَ مساءٍ عضّكَ كلبُ إحدى الباريسيّات، فأخذناكَ إلى العيادة الخافرة، وبعدَ دقائقَ من السّكون طفِقَ سريركَ يهتزّ:

مكتبة الفكر الجديد

كان ضحكك كالعادة يصاعد، درجة درجة حتى آخر السلم الموسيقيّ.

في أحد الأيّام، جئتَ مشطّبَ الوجه، وقد حرثتْ مُحيّاكَ سكّين أحدِ عديمي المأوى، أولئكَ الذين كنتَ تقاسمهم الشّقق المهجورة والأرصفة العارية على ضفاف نهر «السّين». وإلى الآن لا نعلم سرّ غيابكَ المفاجئ: هل حذفتْكَ من الوجود سكّينٌ باترةٌ كهذه؟ أم صحيحٌ ما يُقال من أنّ أحد المُخبرين في سفارة بلادكَ أقنعكَ بالعودة، بعدَما أتحفكَ ببذلةٍ جديدةٍ وقنّينةٍ من رخيص الويسكيّ وتذكرةِ طائرةٍ ربّما قادتكَ إلى واحدٍ من دهاليز الموت؟

ذلكَ أنّ الوطن كان، كما تعلم، سيضيق برؤياكَ المجنونة. كنتَ ستهدّد حصافته التّاريخيّة وتبيد حكمة العقلاء فيه، أنتَ يا مَن كان الوطن يتلخّص لديكَ في ظهيرةٍ مزحومةٍ بالهلاس وباقةٍ من الفجْل تقضمها على عجلٍ، لتروح تتجشّأ النهارَ كلّه، مشوّشاً في المحافل، كرامبو الشابّ، مصاريعَ الشّعر العموديّ وقوافي الشّعراء.

مكتبة الفكر الجديد

صورة أبي في شبابه

كانَ يؤوب إلى الدّار مسكوناً بهزائمه. روحه حبلى بحساباتٍ غير مبرمةٍ وعقودٍ منتهَكة. كان دائمَ الانزلاق على صخرة الواقع العصيّ. لم تكن الشّكوى من سجاياه، ولا من طبعه الإقرار بخسارة. وحده كان يتقلّب على مجْمرة بلواه، ذابلاً في قحولة أيّامه. بيدَ أنّ محيّاه كان يشعّ بضياءٍ لا أحدَ يعرف منهلَ ينابيعه. هو وحده كان قابضاً على السرّ. في طفولته، كانتْ أمّه تناغيه طويلاً، طويلاً. كانتْ، كما يقولُ، تُنيمه في أثوابٍ من الغناء. وبصوتها الرّخيم كانت تحوك له هذه الذّرعَ القويّة التي بها سيواصل الاحتماء في أحلك أيّامه.

مكتبة الفكر الجديد

الأرض المُطْلَقة(*)

الى رولون غاسپار

تولد الأرض المطْلقة من شبرٍ في الدّاخل
بقيَ لسنينَ يَنحت بؤرةً من الضّوء
تولد الأرض المطلقة من سبَخٍ
بوركَ طويلاً
من أعمالٍ لا تفضي إلى نتيجة
ومن اللاّ شيء
اللاّ شيء العظيم الذي عنه يصدرُ القلب.

(*) عنوان مجموعة شعرية بالفرنسية للشاعر المهداة له هذه الأبيات.

مكتبة
الفكر
الجديد

إلى رقيب

عبثاً حاولتَ إعاقتي من الغناء. كنتَ ولا شكَّ حاذقاً في المطاردة، ولكَ في إطباق الحصار مواهبُ كثيرة. فاتكَ فَحسبُ أنّ للغناء نوابضَ لا يُحسن إيقافَها المغنّي نفسه. مبتلىً هوَ بالغناء أكثر منه مختاراً له. متورّطٌ بالنّغم وبالمحال مسكون. مشدودٌ من صميمِ وعيه إلى عذوبة الكلام. هذه التي بحرارتها ينضجُ على المائدةِ القربانُ، وبها ينتعشُ خيالُ المحزون.

مكتبة الفكر الجديد

مأثرة

ماشياً على الحبال يرسمُ البهلوان في شَتات وعيهِ مأثْرةً أثيرة. بينَه والحبلَ تنعقد صداقةٌ خَتمَ عليها أكثرُ من امتحان. تتجلّى له الهاوية في صورةِ حوريّاتٍ يكفي أن يصغيَ لغنائهنّ الطّافح بالغواية حتّى ينقلب إلى مَطارح الموت. طالما تكلّم الآخرون عن حذره وهو يتقدّم على شفير المَهاوي. وطالما أطنبوا في الكلام عن خوفه من السّقوط. يجهلون أنّ جلّ ما يقوم به هو مقاومةُ غنائهنّ. عوليس من نمطٍ آخرَ هوَ لاعبُ الحِبال. يُبحر في أمواجٍ من الهواء ويصمّ أذنيه عن ترانيمَ كان يودّ بملء روحه أن يسمعها. عندما يتوقّف أحياناً، باعثاً فينا ذلك الخوف الطّاغي على مصيره، فعن خللٍ محسوبٍ: لاستعادة أنفاسه أوّلاً، وليستعذبَ جملةً من نشيد الحوريّات بدتْ له مفعمةً بالسّحر. هكذا، بين نشيدٍ مرفوضٍ وآخرَ يتلقّفه هوَ من على مسافةٍ، ينصرم عمره الوضيء، أُذناً في الغناء، وعَيناً على الهاوية، وقدَمين تدبّان في مسارٍ محفوفٍ بجنونٍ مرغوبٍ فيه ومقصيٍّ دونَ ازدراء.

مكتبة الفكر الجديد

أغنية

لا أحدَ سيعرف ما به مررتَ
لا النّخلة الصّافنة إلى جوارك
ولا الواحة
المهجورةُ منذ عهودٍ سحيقة
لا الجِمال تخبّ بسكْرة الحُداة
ولا الطّرُق الملغاة منذ أن هجرَ الفلاّحون
مَطارحهم إلى المدن
لا إسفلت الشّوارع سيعرف ذاك
لا ولا مناديل النّسوة
المُلقاة بسخاءٍ على جوانبِ السّفن
لا تلويحة الوداع ستشهد لكَ
ولا نشيج الأمّ المندفع كخراطيمَ من الماء
عندَ العتبة
وحدكَ ستمرّ من خرم الإبرة

مكتبة الفكر الجديد

وحدكَ ستصطكّ رعباً في أكثر من مضيق
وحده إنسانُ عينكَ سيرسم ارتجافتك
بيدَ أنّ كلّ هذه الأشياء
ترتفع اليومَ في داخلكَ شمساً عموديّة
تطرد الظّلال وتؤكّد
أنّ بيتاً من الشّعر
سيكون فيه ظفرُك
من ليلكَ السّحيق كلّه.

مكتبة
الفكر
الجديد

سباحة

جاء أبي ذاتَ يومٍ ليعلّمني السّباحة. نزلَ إلى النّهر وحده. بأناقةٍ أبعدَ أعشاباً طافيةً على الماء. تمدّدَ على الموج محتفظاً بتوازنه، ورفعَ يديه مصفّقاً بهما في الهواء. «أرأيتَ؟ الأمر غاية في السّهولة»، قال لي قبلَ أن يعاود الخروج إلى اليابسة ويرتدي ملابسه ويعود إلى البيت.

لم أتعلّم السّباحة يومذاك. بيدَ أنّني شهدتُ تظاهرةً سحريّةً كان الوالد بطلها الوحيد. في براءته الشّاسعة، لم يدركْ أنّني ما حفظتُ شيئاً. لا ولا عاينَ أنّني ما نزلتُ إلى الماء. لاحقاً سيُحدّثني الأصحاب عن متعة السّباحة بمعيّة الأب، وعمّا فيها من حرَجٍ كبير. عندما يستقرّ الواحد منهم مثلاً على علباء أبيه ويتقدّم الأب في عرض النّهر، جارّاً ابنه كما يفعل دلفين.

مكتبة الفكر الجديد

سوداويّة

كالسّهم تُقبل السّويداءُ ثمّ تنغرس في الرّوح
هناكَ تتفرّع مثلَ شجرة
وتمدّ جذورَها عميقاً.

كمثْلِ فاتحٍ قديم
تغرس السّويداء حربتَها
في مدخل مدينة
لنفترضْ أنّها الرّوح
وتقول لسكّانها الذّاهلين:
ـ الآنَ يبدأ الحصار
حصارٌ سَيُداس فيه
على نذوركم المقدّسة ويُنكَّل
بنسائكم الحبالى والعذراوات

مكتبة الفكر الجديد

حصارٌ لن يُبقي شيئاً

ولن يذَر

كلاّ، لن يُبقي شيئاً ولن

يذَر.

مكتبة
الفكر
الجديد

مِعمار البراءة

روحه مؤرَقة بكلامٍ لم يقلْه. أفعالٌ لم يقمْ بها تتعاون لتنسجَ حولَ وعيه هذه الغلالة التي عبثاً يحاول الاندساسَ من ورائها إلى الصّبح. يعيش بتفويضٍ ويتنفّس بالنيابة عن مخلوقاتٍ ربّما كان شاهدَها في البريّة الواسعة التي اجتازَها في عهدٍ أو آخرَ من حياته. حياة تبدو له مكتهلةً وفي الأوان ذاته مسكونةً بطفولةٍ لا تُحَدّ. لا يتذكّر كيفَ وصلَ إلى هنا. ربّما أوصلتْه قدماه. أو لعلّه كانَ هنا منذ البداية. لكنْ من أين يأتيه هذا الشّعور بأنّه عائدٌ من سفرٍ شاسع؟

صفحةٌ بيضاءُ هي روحه. لم يعلّموه معنى أنْ يكون. ولا هوَ عرفَ تطويعَ عدَمه. والبياض الذي هوَ صفحة الرّوح يعذّبه دونَ انتهاء. بياضٌ ملحاحٌ ومتطلّب. يريد أنْ ينكتبَ ويودّ لو أنّ يداً حاملةً ليراعٍ خطّتْ فيه دلالةً ما أو شيئاً منعدمَ الدّلالة. في المساء يسّاقط عليه ندىً غريب. ينمو في أعماقه كائنٌ برؤوسٍ عديدة.

مكتبة الفكر الجديد

كائنٌ في انشطارٍ، ستقولون. بيدَ أنّ الباعثَ الأوحدَ لبقائه هوَ موسيقى تأتيه من خارج الوقت وتنبؤه بأنّ بياضه هو كلّ معناه. وبأنّ جُلّ ما يقدر أن يفعله هو أن يُمعن في تبييض البياض.

مكتبة
الفكر
الجديد

جدران

من بعيدٍ، حبلى بالتّهديد، أقبلت العاصفة لتقويض داره. داره المتداعية أصلاً. فاستعارَ من بنات أحلامه داراً واسعةً افترشَها هو وعياله. لم يكن الصّغار مدرّبينَ على السّكنى في العراء، فما بالكَ بدارٍ هيَ محضُ فكرة؟

كان قد وطّن نفسه على القبول بكلّ شيء. يعرض الشيء نفسه، وَبالاً أو خطراً، فيجد لديه كاملَ القبول. كان بين الفينة والفينة يتحسّس جدرانَ رأسه ليتحقّق من أنّ حجر الذّاكرة ما يزال في مكانه وأنّه هو المكان. ما الذي يشدّه يا ترى إلى ذاكرته؟ لحظة واحدة، يقول، لا يتذكّر إنْ كان عاشَها حقّاً. لحظة مسكونة باهتزازاتٍ تكشف له عن زمنٍ آخرَ في الزّمن، وتاثر تعلو فإذا بالأرض تدور بين يديه كالمغزل الرّاقص في محوره الثّابت دونَ انزياح. هكذا كان ينقرض في ازدحام بصيرته المعصوبة ولا يعرف، ويتلاشى في أفكاره الثّابتة ولا يقول.

مكتبة الفكر الجديد

مرثيّة صهري

كانَ، يومَ مقتله، قد حظيَ بإجازة. في وعورة المتراس وجدَ حيّزاً كافياً ليرتّب هندامَه. الوقتُ هوَ ما كانَ في ضيق. جاءت العبوة من جهةٍ ما، كأنّما للبحث عنه وحدَه. صرعتْه في اللحظة الفاصلة بين المجنَّد الذي كانَه والعائد من الحرب الذي كان سيكون.

أتذكّر أنّه، في أيّام الفيضان، شقّ صفوف المساهمين في الإنقاذ الشعبيّ ليُحيّيني ويتحفني برغيفٍ من الخبز غير المخمّر. بعد ذلك بسنين، سيهتف لي إلى باريس، وسأميّز في صوته ذلك الرّنين الذي يُنبئك، دون أن تعرف كيف، بأنّه كيانٌ أبديٌّ وورقةٌ من النّور سيُجعّدها المستقبل عمّا قريب.

صهريَ الفذّ الذي جاءني، والدّنيا في فيضانٍ، بابتسامةٍ ضافيةٍ ورغيفٍ من الخبز غير المخمّر الذي كنتَ بالغَ الولع به في تلك الأيّام.

مكتبة الفكر الجديد

الأصدقاء

أنا لا بيوتَ لأصدقائي. يسكن الواحدُ منهم في أيّ مكانٍ آخرَ سوى البيوت. الواحدُ منهم قالَ: «فَلْنُرِحْ دودةَ القزّ هذه النّاسجةَ في مجاهل الرّوح رداءً لن يُستَعملَ»، واتّكأ إلى هاجسٍ لديه وأجال في الأفق بصرَه. بصَرٌ هوَ في سياحةٍ دائمة. ليس صحيحاً أنّ السّفر بحاجةٍ إلى حركة. أفَما كتبَ شاعرٌ عن رحلاته المتناهية على سرير مرضِه؟ كذلك هُم أصحابي، لا يكفّون عن السّفر الثّابت. وما إن سكنَهم هاجس الرّحيل هذا حتّى ابتكروا فكرة اللاّ ـ بيوت. فكرةٌ ذات مآربَ عديدة. تحميهم من تطفّل المارّة المتلصّصين أبداً عبرَ زجاج النّوافذ. وتهبهم نعمة الاختلاط بالهواء. ناهيكَ عن نزاعات الورَثة، يحبطونها هكذا في البيضة، فيستريحون ويُريحون.

مكتبة الفكر الجديد

الوقت

عندما تمدّدتَ في الزّمن المحسوب
تصوّرتَه بلا انتهاء
والزّمنُ كانَ حولكَ يتبع
مسارَه الحقيقيّ
السّاعاتُ تحبل بالسّاعات
والنّهارُ إلى اللّيل يفضي
وغمامةٌ من التّعب راحتْ تُطوّح
بمنازلَ أثيرةٍ لديك
وجوهٍ تحبّها كما لا تحبّ نفسَك.

الزّمنُ الآنَ مضاعفاً تريده
زمناً داخلَ الزّمن كعرائسَ روسيّة
يتوالد بعضها عن البعض بلا نفاد.

مكتبة الفكر الجديد

آهِ خلِّ عنكَ هذا الوهمَ الطيّب

وامْضِيَنَّ إلى قلب اللّحظة

اللّحظة الآتية، انظرْ!، هيَ ذي تمرّ.

مكتبة
الفكر
الجديد

دُعابــة

عندما جلستَ في حُجرتكَ الضيّقة لم تهاجمْكَ الجدران، ولم يصرعْكَ ملاكٌم خفيّ. لم تتحرّكْ الكراسيُّ من تلقاء ذاتها لتجرحَك. والموت، الذي تحسبه لابِداً في الجوار، لم يتلعْ برأسه ليُفزعَك. وحده برَمُكَ بالدّنيا يجعلكَ تضيق بالأمكنة ذرعاً.
وحدها رومنسيّتكَ المهلهَلة تمنعك من توسيع الفضاء بفضاءٍ إضافيّ. أوَ تنسى أنّكَ ممّن يحتفلون بالجهد ومَن تجعل أيديهم حتّى الأثلامَ الضيّقةَ تتفتّق عن ثمرٍ موفورٍ ذي عافيةٍ مديدة؟ الحياة كنتَ تجابهها بوفرةٍ من الحياة. وكم مرّةٍ رحتَ تصارع العاصفة المتعاليَ دويُّها في الأفق، طاوياً الرّوح على مجاعاتكَ الطّوالِ، حاملاً في أعصابكَ شموساً مهموزة بنوابضَ سريّة؟

مكتبة الفكر الجديد

تجريد

مرّةً هفوتُ إلى صنيعٍ مُعجِز. فرجوتُ رفاقي الصّغارَ أن أكون حارسَ مرماهم. كانت الكرة تقبل كالبرق فأوقفها بحركة إصبع. يئسَ فريقُ الخصوم يومذاكَ إذْ ظللتُ أنتصبُ أمامه متراساً بكاملي. حسبوني من الجنّ. وأنا نفسي ظننتُني كائناً بلا فُتوق. كان شفيعي إلى جانبي يقف.

في الأيّام التّالية، كان الهدف ورائي فضاءً مفتوحاً. تقبل الكرة، ومن دونِ أن أبصرها أُدرك من صرخات الخصوم المنتصرةِ انهيارَ مقاومتي. كأنّني لم أكنْ هناك. كنتُ هناكَ بكاملي، ولكنْ بلا شفيع. كائنٌ لا شفيعَ له هو حقلٌ رجراجٌ تجتازه كراتُ الأعداء من كلّ اتّجاه.

لو أنّ الشّفيع أتاني اليومَ فما من فائدة. اللّعب تغيَّرَ. والميدان ما عادَ هو نفسه. بل صرتَ لا ترى ميداناً. تُقبل الكُرات لتخترقَ الدّريئة دونَ أن يكون من دريئةٍ ولا من كُرات. العصَب موخوزٌ

مكتبة الفكر الجديد

بمهاميزَ ليسَ تُرى. والمطر التجريديّ يهطل على القلب، القلب الشّاسع الذي هوَ للا أحد.

مكتبة
الفكر
الجديد

فتوة (٢)

هي ذي كيمياءُ الأحوال المتبدّلة. شبابكَ الذي كنتَ تضيق به ذرعاً، والذي فعلتَ كلّ شيء لتفرّ منه، يبدو لكَ الآنَ أغلى ما ملكتَ. الزّمن الوحيد العائد إليك بكامل الامتلاء. كنتَ في القراءة تمضي شطراً من الصّباح. وما إن تفرغ القيلولة من سكْب أحلامها الرّديئة حتّى تذرع الشّوارعَ باحثاً عن قرين. نادراً ما كنتَ تلقى مُحاوِراً. الفتيات، من خلفِ أعتاب بيوتهنّ، يلقين نظرة غوايةٍ ووَجل. ومن المقاهي يتناهى غناءُ السيّدة معبّأً بالأسف. وعلى امتداد الحدائق يغزوكَ أريجُ جيرانيوم لن تشمّ مثيلاً له من بعدُ أبداً. في المساء تعود إلى داركَ مستضيئاً بجمرة سيجارة الحارس القابع في الرّكن نفسه أزليّاً. تحيّيه برصانةٍ زائدةٍ، عارفاً أنّ هذه لم تكن إلاّ جولة أخرى في مسارٍ معلومٍ سيتصرّم فيه، بالتّوق الباحث نفسه، وبالحرقة ذاتها، ذلك الشيء الباهر وعديم الدّلالة الذي تدعوه شبابك.

مكتبة
الفكر
الجديد

سجون

صباحٌ بَدا لا كسائر الصّباحات. المدرسة حُوِّلَتْ فيه معسكرَ اعتقالٍ، وأغلبُ قاعات الدّرس حُجَرَ تعذيب. حدثَ هذا في مطلع طفولتي. حظٌّ عاثرٌ ولا ريب. فطويلاً بعدَ ذلك، سيظلّ يتعالى في سمعيَ الأنينُ نفسه. أنين تروي الأمّهات أنّه راحَ في ذلك المساء يقطع الدّرب بين المدرسة والبيوت، دونَ أن يفقدَ من مضائه ولو قيدَ شَعرة. في الأيّام التّالية، كان لا ينفكّ يصّاعد من الأرض وينهمر من الميازيب. طويلاً ينفض المرء ثيابه ليسّاقط الأنين منها حبّاتٍ حبّات. لاحقاً، يكتشف الواحدُ أنّه اختلطَ بِمنابت الشَّعر وصارَ يشكّل للمرء ما يُشبه طبيعةً ثانية.

وحده يأسي منَعني من الالتحاق بمَن كانوا يُدعَون بالحُمْر. لكنّ أنينهم المتصاعد من طيّات السّكون منعني من الانقلاب إلى معسكر أعدائهم. رحتُ أشجبُ الظّلم دونَ أن أحتمي بشعارٍ أو يافطة. ما قيمةُ شعارٍ أمامَ أنين؟ أنينٍ سمعتُه عنكَ أمّك (كنتَ نائماً آنذاكَ) وبقيَ منغرساً في ثناياكَ لا يبرحها البتّة.

مكتبة الفكر الجديد

إلى صديقة

من سنينَ وأنا غاصٌّ بجرعة الألم هذه. تبدأ بموجاتٍ غامرةٍ من الفرح سُرعانَ ما تنقلب إلى ضدّها التامّ، فيكون ذلك الألمُ الجارف الذي لا أقدر على تسميته. ثمّ قابلتُكِ. وتكلّمْنا. عندما جاء فِعلُ التّسمية ليؤكّد كثافة القُبَل، رأيتُ إلى ألمي وهو ينفصل عنّي غمامةً مظلمةً تصبح من بَعدُ مُلاءةً من النّور. صرتُ أقدر أنْ أريكِ إيّاه في تكوّره المُلغِز واكتمال هندسته.

•عندما جاء فِعلُ التّسمية، كنتِ، من زمانٍ، هذه التي على يدها يكتمل القول وتصير الآلام تمريناً في التّهجية لا غير.

مكتبة الفكر الجديد

الزّمن المستعاد

يُنفق الشاعر الجريح نصفَ عمره ناشداً السّلوان. يبحث عنه في كلام الأصحاب، وهُم في الغالب الأعمّ مهرَةٌ في تفتيق الجراح. أو يلتمسه من الصّمت يَهمي عليه كالنّدى العذب تارةً وعلى جراحه يسّاقط كالمِلح طوراً. عندما يتحقّق الشّاعر الجريح من حقيقة زمنه الضّائع تختبل في الرّأس دُنياه. يحسب الموتَ قابعاً في انتظاره، ويخجل من الأمّ المنسيّة، ويصيبه هوَسُ الأرقام: يعدّ خساراتِ ماضيه ويتهجّى، كلمةً كلمةً، كتابَ قلبهِ العريضَ غيرَ المقروء. ثمّ ينتصب، إذا كان شاعراً بحقٍّ، على قائمتَين من خياله الجموح ويعدّ العدّة لاسترجاع الزّمن. يكشف له عُمق رؤياه عن حكمةٍ نافذةٍ في كلّ لقاءٍ مُفوَّت. يَثملُ بالزّمن العائد ويبكي من فرحه لإمساكه هكذا بماضيه، إضمامةً من الورد، عجلةً دائرةً من النّور. وإذا ما تغيّب عن أصحابه، فلكي يلتقيَهم ثانيةً في الورشة الشّاسعة للتفكير والعمل التي صارَها نهارُه وليلُه.

مكتبة الفكر الجديد

إذا ما تغيّبَ عنكم الشّاعر الجريح، يا أصحابَه، فلتعذروه. في الزّمن المرفوّ من جديدٍ يُبصر وجوهكم وهيَ تتعاضدُ وكالبرق تسطعُ في مدائنَ تُسلِم بكامل السّرور مفتاحها لِغازيها الطّيّب.

مكتبة
الفكر
الجديد

باقات

فجأةً كَبِرَ. وما كان مهيّئاً لذلك. فجأةً وجدَ لديه عُمراً يُعَدّ بعقودٍ من السّنوات، سنواتٍ تتقاطر كعرباتٍ غير محكمة الشدّ في قطارٍ يندفع في البريّة بمنأىً عن توجيهات سائقهِ نفسه. ودّ لو كانَ هو ذلك السّائقَ المُعفى من كلّ انتباه. حلمَ بصحراءَ مديدةٍ يجتازها كالسّائر في نومه، مفتوناً بصوَر الرّمل والشّساعة العارية والتماع سراباتٍ تداعبُ خياله الجريح وفتوتّه المبلبَلة. فكّر بمَفارقَ يجلس عندها يَعدّ المارّة، بباقاتِ وردٍ يُهديها لعازفينَ عُميانٍ امتزجوا بآلاتِ العزف. فكّر بأن يكون هو العازف الأعمى يقوده أبناؤه إلى واحةٍ من الشّعور أمضى سائرَ العُمر عنها يُنقّب. فكّرَ بحيلةٍ تمكّنه من تحطيم الفواصل والأعداد، فتبدو له حياته كمثْلِ جملةٍ موسيقيّةٍ تعلو وتتواصل بلا بدءٍ ولا انتهاء.

مكتبة الفكر الجديد

لَسْع الذّكرى

«ما يزال للذكرى فيكَ لَسعُها القويّ»، تقول لي صديقةٌ تطوّعتْ لتُزيلَ عنّي، بنعمة الكلام وحدَه، أشواكاً متراكمةً على مصيري. إنّها تَنشد الرّجوع بي صُعُداً إلى سالفِ قراراتي، عندما شنتُني، بكامل الحقّ، مُستكشفَ جميع العوالِم. وأنا أشاطرُها بالفعل الإيمانَ بأنّ شاعراً لا يكون ما لم يُحسنِ استخدامَ ذلك المشرط الذي هوَ من نورٍ ومحبّةٍ، به يُشذّب وجدانه كما يشذّب البستانيّ ذوائبَ الشّجر أو كما يُلطّف الفنّان مشارفَ الخطوط.

ولأنّي استعذبتُ مرأى مرافئَ أدركتُها في غضارة الصّبح فأنا آنفُ من اجترار ماضيّ. ماضيَّ الذي حدثَ صدفةً أنْ وشّحتْه غلالةَ من التّعب، وسكنتْه غصّة كنتُ عن خطأٍ أحسبُها مقيمةً فيَّ ما أقامَ عسيب.

مكتبة الفكر الجديد

منزل الأب

واسعاً وبلا رتاجٍ كان منزلُ الأب. أقاربُ من القرية يستريحون فيه أثناء مرورهم بالمدينة. كلٌّ يحمل على كتفهِ غدّارَته(*). أسألُ أحدَهم إنْ كانَ قتلَ، فيُجيب: «بالطّبع! كثيراً من الحجَل، أصرعُه مِن أوّل إطلاقة».

آخَرُ يقول لي: «كلّ واحدٍ يحمل في داخله موتَه. يردّده كلازمة. أغنية من الأزمنة القديمة. وعندما يموتُ فكأنّما أدركَ نهايةَ الأغنية. لا غير». فتُعقّب عمّتي متطيّرةً: «ما لكَ تحدّثه عن الموت؟ إنّنا نُهاجر، ولسنا لِنموت».

كلٌّ يحمل على كتفه غدّارَته. وفي أذهانهم تتدافع ذكرياتُ الحجَل المقتول من أوّل إطلاقةٍ، والخنازيرِ البريّة المردودة على أعقابها، وكتَلِ الضّباب في غابات النّخل، والسّعادةِ الشّائعة، وعن الموت هذه الخواطر الطيّبة.

(*) بندقيّة صَيد.

مكتبة الفكر الجديد

جَنوب

صامتاً أرى إليهم يبتعدون
بخطوةٍ واحدةٍ يجتازونَ السّياج.
المدى المزنّرُ بسامق النّخل
سرعانَ ما يبتلع أطيافَهم.
نقطةً صغيرةً متلاشية
يصبح الواحد منهم في خاتمةِ الأفق.
كنتّ أودّ لو أنّي أعلَق
بمصيرِ الواحدِ منهم
كالخنجر العالق بحزامه، كنتُ أودّ
لو أُصبح فاصلةً أو همزة
في سِفْر مصائرهم المكتملة.

ببنادقهم المفضّضة الأعقاب
يبتعدون.

مكتبة
الفكر
الجديد

صائدو البطّ والخنزير البريّ
حيثما غامرَ باجتياز
غابات القصب المتناهية.
أتلقّف كلامهم الموجز
وأملأ فراغاته بكلامٍ منّي.
وحده الطّالع السّيئ ولا ريب
شاء أن أنشأ في المدينة
بعيداً عن الرّيف حيث يمدّ أهلي
في الأرض الرّاسخة جذورهم الصّلبة
وحيث يقيم أبناء عمومتنا
مضائفهم المتعامدة والأنهار.

الظّهائرُ هناكَ في ارتفاعها تُعيدك
إلى زمنٍ أصليّ
تسمع طنينَه المُرنّ
يصّاعد من طيّات السّكون.
وفي اللّيل عندما لا يتعالى
صخبُ أعراس
لا يندرُ أن تسمع غناءً منفرداً

مكتبة
الفكر
الجديد

لجارٍ متوحّد
يزجيه في اتّجاهكَ كأنّه اصطفاك
شاهداً أوحدَ على أشجانه.

حشراتُ الرّيف
أعرف أزيزها في سائر تنويعاته
غاباتُ النّخل بعوالمها المكتظّة
أعرف ما يدور فيها من ولادات
وطيورُ الرّيف
أميّزها بعضاً عن بعض
من نبرة الشّدْو لا غير.
باكراً تعلّمتُ أن أغافلَ الخنازيرَ البريّة
فهي لا تَرى من طرَفِ العَين.
الموتى الصّغار
بجثثهم الطّافية على المياه
أنا يتيمهم كلّهم.
اللّقاحُ أعرف طعمَه الغريب
ومن الورد أعرف
هذه اللّذاعة التي تتسبّب لك

مكتبة الفكر الجديد

بدوارٍ عذب.
السَّبَخَ أعرف
والأرضَ تُزرَع عاماً من اثنين.

كمثْلِ برتقالةٍ في جوفِ الماء
يرقد في أعماقيَ الرّيف
بدونهِ أتقدّم في العالَم
محروماً من جانبٍ من الكيان
الجانب الأجمَل ولا رَيب.

مكتبة
الفكر
الجديد

عازفة القيثار

عازفة القيثار في المترو الباريسيّ
يكبرها القيثار حجماً
وربّما في العُمر أيضاً.
لا تكاد تفرّقُ بين الاثنين
ولا تميّزُ إنْ كان القيثار
يتّكئُ على صدر العازفة الهرمة
أم أنّها بكيانها تغضدُه
لقيةً عزيزةً، ولعلّك تفكّر
بالقنطروس: الدّابة وفارسها (هنا الفارسة)
وقد صارا واحداً، أو تتذكّر
ملاكاً بجناحين
ثقيلين حتّى لَيعجز
عن مبارحة الأرض. أمّا أنا فأُؤثر

مكتبة
الفكر
الجديد

التفكيرَ في حضورهما بالموجة
موجة واحدة تتغوّر وتعلو
مازجةً العضل والدم
وكتلة الخشب الذي ازداد خفّة
بباعثٍ من النغَم الذي صارَ أثقَل.

مكتبة
الفكر
الجديد

ارتطام

بالعُنف كلّه ذاهبٌ لأرتطمَ
بمصيري .

منذُ عقود
وأنا أجلس
وأنتظر
اليومَ غيّرتُ مسعايَ كلّه
وها أنا
بالعُنف كلّه أذهَب
لأرتطمَ
بمصيري .

سأجلس
على شواطئَ خطيرة الانزلاق

مكتبة
الفكر
الجديد

سأخاطبُ الدّلافين وأصرّ
صريرَها الحادّ نفسَه
مثلَها سأتقلّبُ في أوقيانوسات
من صنع هوَسي.

قد يُقبل المصير في هيأة ثور
في هذه الحالة سأبقرُه
أمامَ جموعٍ متلذّذة
بمرأى دمائي
سأبقره بمدْيةٍ خارقة
من صنع ذهولي
وأدَعه يتمرّغ على رمال
تنسكب من الذّهن بلا انتهاء.

الرّمالُ أنا والحلَبة
والمدْية البارقة في الجرح
والمُصارع اللاّ يتعب
والدّابة التي تُنحَر
هيَ أنا.

مكتبة
الفكر
الجديد

عندما سيَتلامح المصير
سأطرحه أرضاً
وأستردّ ما فاتني منه
حاسباً الحساب لباقي أيّامي.

أو قد أغسله ببساطة
كمثلِ ما يُغسَل الوليد
من ماء الولادة
وبذلكَ الاحتدام النّشوان
أُقيمُه في العالَم بِعدالة.

مكتبة
الفكر
الجديد

اللّغز

ربّما لن ينكشفَ اللّغز أبداً
مهما نفعل
من أجل اكتناهه
ربّما لم يكن ثمّةَ من لغز
ربّما كان يحْسنُ ألا نُميط
اللّثامَ عن أيّة ذكرى
ربّما كان يحْسنُ الإيغال في الجهل
الجهلِ العارفِ الذي يُجوهِر القلب.

مكتبة
الفكر
الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

II

دراسةُ يَدٍ وقصائد أُخرى

(٢٠٠٥)

مكتبة
الفكر
الجديد

مكتبة الفكر الجديد

سعادة

آه يا للسعادةِ في أنْ أتمدّد
على رملٍ متخيَّل.
الاعتصامُ في البيت واستحداثُ
نزهاتٍ طويلةٍ في المكان
ألاّ يكون عندي ما أعملُه
وأنْ أهبَ أفكاري إجازةً مَديدة
تُقبل الفكرة فأطاردها
طويلاً طويلاً
أمسكُ بها من ذوائبها وأقول:
«يا فكرةُ إليكِ عني
فأنا لستُ بحاجةٍ إلى أفكار».
أنفُخُ على الفكرة حتّى تتبخّر
وأروح أجرّب فراغَ ذهني
أبتكر نرڤانا شخصيّة

مكتبة الفكر الجديد

وأقول الوداع لكافّة آلامي
أُقْنع النّفس بأنّ أحبّائي ما ماتوا
بل غيّروا فحسبُ مطارحَهم
أتيحُ للأطياف حضورَها الوفيّ
وأعاملها كزوّارٍ أثيرين
أُبعثر في الهواء ريشَ غربان المنفى
الناقرة على نافذتي
دونَ سابق إنذار
أُبدّد طيشَ فِراخ الهجرات
وأقول لنفسي كفى انثيالاً.

تسيحينَ يا نفسي في كلّ اتّجاه
لا تتركين لحيرتي من مستقرّ
ينبغي أن تكون لكِ من الآن
بؤرةٌ واحدة
ينطلق منها كلامُ جراحي
وإليها يرجع.
ينبغي أن تكون لنا حَميّة
وعادات

مكتبة
الفكر
الجديد

تليق بأصحاب الموتى

أولئك الذين يِقع على عاتقهم

تطويبُ المنفى بالأغنية

ويكون عليهم في كلّ لحظة

إماتةُ الموت.

مكتبة
الفكر
الجديد

القادمون

عندما يُقبل القادمون
من بلد الرّمال
ولو في زيارةٍ عابرة
فينبغي تنظيف الرّوح
من آثار زيارتهم.
يحدّثونكَ عن مسوخٍ تتناسل
في ظلّ الواحات
عن أحلامِ ضفادعَ لا تغادر الشطوط
وعن مسابقاتٍ للركض
تُخاض بين سلاحف الأمس واليوم.

ينبغي شيءٌ من حكمة زرادشت
لتمكين الذاكرة من ألاّ تحفظ

مكتبة الفكر الجديد

شيئا عنهم

المحْوُ هنا من آيات الكتابة.

مكتبة
الفكر
الجديد

عن العبور

كان ينبغي أن نُكثر من الرّكض
كان ينبغي أن نمزّق السّراويل
من حراكنا في قارّات الرّمل
كان ينبغي أن تضمّد جراحَنا حبيبات
ينهمرن من خواطرنا وأيدينا
كان ينبغي الاقتران بِبناتِ الأفكار.

مكتبة
الفكر
الجديد

المنفيّون

يخبل المنفى بِحساسينه
تهمس بغنائها سلاماً على الجروح
يخبل المنفى بِيرابيعه
تملأ الصّحارى بفحيحها العجيب
يخبل المنفى بِصغاره غير المكتملين
يركضون في بريّة دواخلهم
محروسين
بالصّوَر القادمة وطلائع الكلام.

مكتبة
الفكر
الجديد

في الغناء

ليس تولد الأغنية من اللهفة الباطلة
هذه التي تقتل النشيدَ ولمّا يولَدْ
والتي تُربِك اكتمالَ الأعناب.

النّشاز هو الموسيقى
المنظومة على عجل
النّشاز هو الطفل يُحبَل به
في العام الضيّق.

لأكُنْ ذلك الذي انتظرَ طويلاً
وبِعَقدٍ من السّنواتِ أو اثنين
قبلَ أنْ ينقلبَ ناحيةَ الموت
يمْثل الغناءُ عند أعتاب بيته

مكتبة
الفكر
الجديد

سماءً مَطيرة.

ليكنْ لي
أن أداعبَ بيدٍ واحدة
غضونَ وجهيَ الجانح إلى الشّيخوخة
ومزاميرَ الغناء تعزف في القلب.

مكتبة الفكر الجديد

الأنشوطة

في مشيمته غير المنفصلة
يختنقُ الشّيخُ الطّفل
وكأنشوطةٍ ينعقد على أعضائه
حبلُ سرّته الذي ما انقطعَ أبداً
سابحٌ هوَ في مياه ما قبل الولادة
تحاصره حرارة الوالدة
وعوالمُ رحميّة
كان ينبغي أن تتبدّد
يومَ انقذافه
خارجَ ذلكَ الدّهليز المظلم
البالغ الشّبَه بالجُرح.

ولادةٌ مؤجّلةٌ وموتٌ متربّص

مكتبة الفكر الجديد

وحياةً لا تُعاش إلاّ لماماً

والجنين المعمَّر غير المولود

ينتظر غناءه طويلاً.

مكتبة
الفكر
الجديد

أجنّة

الكائن المُعمَّر الذي لم يولدْ قطّ
والذي في انتظار ولادته المرتقبة
يلوِّح في اتّجاه أجرامٍ غير مرئيّة
لن يعرف الهناء في ساعة ميلاده
ولن يرى النورَ إلاّ
في نفقٍ هواجسَ ليسَ تُحَدّ
وإذا ما ارتطمَ صُدْفةً بالموت الآتي
فلن يكون ذلك موتاً
ولا احتضاراً
بل انتقالةً هادئة
إلى مطرحٍ آخرَ من عدَمه البدئيّ.

في انتظار هذه النقلة ولأنّه
مراراً تمرّغَ في الوحل الأصليّ

مكتبة الفكر الجديد

مؤجّلَ الولادة ومع ذلك
مُضاعَفةً أعمارُه
ففي لحظةٍ واحدة
سيُدرك من الحياة
شعلتها الباقية وسرّها الوضيء
وستكون تلك اللحظة
بالغة الكثافة
باهرةً وحادّة
وبلا نفع.

مكتبة
الفكر
الجديد

رفْقة

ينبغي أن ننظرَ بإمعان
إلى هذا الدّهليز الضيّق
الذي يُشبه ما يُدعى بالحياة.
اليرَقاتُ الطّافية على حوافّه
هي أرواح أشقّائنا المعوّقين
يلوّحون نشداناً للخلاص
جائرينَ الليلَ كلّه
من ولادتهم غير المكتملة.

عَلينا أن نسهرَ
صحبةَ الرّفاق
رفاقنا الّشائهين المتشظّين
أعضاؤهم الناقصة أبداً

مكتبة
الفكر
الجديد

وارواحهم المدمّاة

تطالب بمَن يرفوها.

صراخهم غير المسموع

يزنّر الكون بموجاته الطّوال

التي إليها يرجع

تخبّطنا الأزليّ في مجلدة الأحلام.

مكتبة
الفكر
الجديد

مزمار الأعصاب

هذه هي ميتافيزيقا اللاّ ولادة
هذه هي كيمياء النقص الأبديّ
هذه هي عَروض التكسّرات
الأصليّة
هذه هي بلاغة الانكفاء
تعرض اليومَ على السّابلة
خفاياها
هذه هيَ أنفُس الرّفاق المثقوبة
تطالب باستوائها على أرض الأحلام
وحده الشّاعر الذي مرّ من خزْم الإبرة
إبرة الجرح اللاّ شفاء منه
وحده المغنّي الهائم في آلامه
يحمل لها كبّة الخيوط

مكتبة الفكر الجديد

وبيده الرّاجفة يرتقها

طويلاً يعزف لها على مزمار الأعصاب

ويرفع لها النّخب.

مكتبة
الفكر
الجديد

في الكتابة

أتوق إلى الصّمت أبداً
وما أكثرَ ما أشطب على صفحاتي
كلّ ما أكتب موعودٌ بالاّمحاء
في انتظار كلمةٍ واحدة
تنوب في اكتمالها عن الكلّ.

يوماً ما ستأتي كلماتي
حارّةً مشعّةً وكاملة
في انتظارها أفنيتُ العُمر
ناصباً على حافّة الرّوح طاولتي
ساكباً الحبرَ من إيقونات الدّمع.

«الكتابة بالأحشاء» تعبيرٌ مستنفَد
سَأهبُه كلَّ معناه.

مكتبة الفكر الجديد

بساطة الأغنية

بسيطةٌ هي الأغنية، حارّةٌ وواعدة
في الغياب أنضجَها هواءٌ سِريّ
وتعهّدَها
أوقيانوسٌ من الألم.

بسيطةٌ هي الأغنية، مديدةٌ وناضجة
أليسَ في غضارة العنبِ تُعرَف
دِرايةُ الفلاّح الماهر؟
أَما في عذوبة الخمر تُلمَح
أصابعُ العاصر الأمين؟

بسيطةٌ هي الأغنية وفقيرة
تحمل في امتلائها سلالة عدّائين

مكتبة الفكر الجديد

يُسلِم الواحد لمن يليه
عصارة كذّه
ثمّ يتخيّر لنفسه ضريحاً
في الخطوة القصيرة التّالية
التي تنطلق منه لتُلغيَه.

مكتبة الفكر الجديد

الصّورة

كلّ يومٍ أخطّ جراحي في كلمات
صفحةً صفحةً ينكتبُ العُمر
يوماً ما لا محالةَ سألقاني
قابضاً على الصّورة المؤجّلة
التي من أجلها قمتُ
برقصيَ العنيفِ هذا كلّه.

ستكون الصّورة لا خِلابة فيها
ولا من إبهام
حادّةً ستكون
كالمدْية في الجرح
عاتيةً ستكون مثلَ موجة
ولِمَنْ سَمِعُه

مكتبة الفكر الجديد

مدرَّبٌ على الإصغاء الآخَر
ستكون مريئةً وسهلة.

يا صورةُ أرجوكِ
ألاّ تأتي قبلَ الأوان
فجّةً أو شائهةً أو مزوّقة
بل بهيّةً جيئي يا صورة
معتدلةً وطبيعيّة
حيّةً وجارحةً وعذبة.

مكتبة الفكر الجديد

في الطّريق

متلمّساً بالأصابع حتّى لأُدميها
هكذا نقّبتُ عن الطّريق
طويلاً فتّشتُ
والضّالّة كانت هي نفسي
ويا ما حفرتُ
في الظلمة نفقاً طويلاً
دونما هواء
مراراً وقفتُ
على قاب قوسين أو أدنى
من المَخرج
ولكنّ شيئاً ما يُنسيني
وجهتي فأعود
إلى مجال
كنتُ حسبتُني خارجاً منه

مكتبة الفكر الجديد

للا عودة.

مراراً تفاوضتُ

والوحشَ النابحَ في داخلي ومراراً

هادنتُ النّسور

تُبلّط من حوليَ السّماء

وتنتظر سقوطي كالجثة

لتبدأ بالنّهش.

لا أعرف كم عضواً تهاوى منّي

والتّرقيعة التي تمضي الآن

في طرُق العالَم

هي الكائن المُضبَّر الذي ينوب عنّي.

مكتبة الفكر الجديد

تباشير

كسائر الطلائع الباحثة
عن تباشير القول الآخَر
كنتُ قرباناً مقطّع الجسد
على قارعة أكثر من طريق
اليومَ تلتحم أعضائي
وأستعيد جسداً بدئيّاً
وتنبت لي
مكانَ يديّ وساعديّ
أغصانٌ كثيرة
اليومَ في رأسي تطلع لي
هوائيّات.

حكمتي الوحيدة هي هذه:

مكتبة
الفكر
الجديد

تطويعُ الألم

فأنا لستُ الباكي في الصّفوف

لا ولا أنا

مُلفّق ابتسامات

إنّني أكره حاملي الأقنعة

وأكثرَ منهم

أكره مَن لا يجدّدون

بغضون الأتعاب أوجهَهم.

عندما يسقط المحيّا الأوّل

من ثقلِ المعرفة والجهد

يسطع المحيّا الآخر

الباقي الأبديّ

صاريةً للسفن ينتصب

ومناراً للتائهين.

نجمةٌ في السّماء مؤتلقة

مكتبة الفكر الجديد

تغمز للمُبجِر وتقول له

بلا رياء:

- إنْ أنا يا صاحِ إلاّ

واحدةٌ من ثمار تعبك.

مكتبة الفكر الجديد

صحراء

مخترقاً الصّحراء

في كلّ ذرّةٍ من الرّمال

كنتُ أرى

صنْويَ العريق يدنو

ويبتعد.

في كلّ سحابةٍ من الغبار

كان وجه أُمّي يتشكّل

ويغيم.

السّراب كان في عُرفي صورة

تطالب بصياغتها

والضّباع

مكتبة الفكر الجديد

في ائتلاق عيونها الحاقدة
كنتُ أتبيّنُ انهيارَ أملي.

المعجزات كانت تبدو لي
خرافةً سائرة
وقبائل الجنّ المتنقّلة
كنّ يبعثنَ في هواء الأرياف
أناشيدهنّ غير المسموعة
التي تُحدث في الرّأس
دويّها العجيب.

في كلّ خطوةٍ ينزلق الكائن
الهاوية تُسلمه إلى الهاوية
وعلى كفّيه
ينسفح الماضي
ألغازاً أليمة.

مكتبة
الفكر
الجديد

كان ينبغي السّفر دونَ وجهة
كان ينبغي إعادةُ ابتكار
الوطنِ الهويّةِ اللّسان
تجديدُ الهواء
حيثما يندر في البريّة الهواء
كان ينبغي إذلال المسافة.

مكتبة
الفكر
الجديد

عن الجهد

عن الجهد أتكلّم وكذلك
عن المسافة
عن الطُّرُق تُعشَق كأنّها امرأة
عن الدّروب
تُكتَشف لها فضائل
وأُعطيات
عن الأغاني صامتةً تُعلي
في الرّأس دويّها الأليف
عن الماء الذهنيّ
ينهمر زلالاً على الشّفاه
عن اليد الصّديقة تتحسّس
جيوبكَ الفارغة
وتدسّ فيها حصىً عجيبة

مكتبة
الفكر
الجديد

وأغنيات

عن الأمّ تسبقك في الشّوط

ثمّ تصير هي ابنتك

عن النّضج ممتنعاً أتكلّم

عن اكتمال الولادة لا يُنال إلاّ

على قاب قوسين أو أدنى

من الموت.

مكتبة
الفكر
الجديد

ليليّة

ذلكَ الكائن الرّصين
الماشي بينكم بثقة
لا يبدّد سكونه وخْطُ حُزن،
لا يكاد يدلف إلى قعر داره
حتّى تبدأ بالرّنين حولَه
وفي داخله
صنوجٌ تدعو إلى حروب.
قبائلُ وَشِيَعٌ
تتخيّر ميدانَ قتالها فيه.
ولكي يستعيد هذا الكائن
سلامَه الخاصّ
فهو يُعاود الخروج
يرتدي بذلته بكامل الهدوء
ويعتمر طاقيّته

مكتبة
الفكر
الجديد

ويروح يبحث في أرجاء المدينة
عن مُحاوِرٍ محتمَلٍ
رفيقٍ قد يكون تأخّر في درب العودة.

غالباً لا يجد أحداً
ولكنه
في رحلته العبثية تلك
يكون أخمدَ حروباً عديدة
وأعاد إلى السّلْم
قبائل شتّى
تستأنف في الغد في داخله
معتركَها القديمَ نفسَه.

مكتبة الفكر الجديد

الخروج

من جسدي هذا سأَخرج
جسدي الذي يعتقد الموت
أنه قادرٌ على انتظاري فيه.

من جسدي هذا سأَخرج
في اندفاقِ أصواتٍ عجيبة
وإيماءات
بلا بذاءة
ولا تهذيب
إيماءاتٍ غريبةٍ فحسب
وبلا معنى.

من جسدي هذا سأَخرج
فإذا ما أقبلَ الموت يوماً

مكتبة الفكر الجديد

فسيَلقى جسدي وحده
بلا ساكنٍ أو مستأجر
يمارس عليه الموت
شروطه التي هي دوماً
شروطُ حرب.

الجولة التي إليها
يتوق الموت
أبداً لن تحدُث
لأنّ وعيي سيكون
تبخَّرَ تماماً
ظافراً هناك في عدَمه
أو في كينونته الصّريحة
أبعدَ من كلّ حياة
ومن كلّ موت.

مكتبة
الفكر
الجديد

دراسة يَد

مجرّةٌ كاملةٌ هي هذه اليد
قارّةٌ مترامية الأطراف، غابةٌ فارهة
في تعرّقاتها المتشابكة تحمل
طلاسمَ لا حاجةَ بكَ لأنْ تكون
ضارباً بالرّمال
لتكتنهَ سرّها الجليّ.

في هذه اليد جرحٌ غائر
لا تدري أيّة معرفة
بل أيّ حدسٍ أحالَه
طيبوبةً وفيضاً.

ثمّ هل هيَ يدٌ حقّاً

مكتبة الفكر الجديد

أم يا ترى جبينٌ متغضّن
يرتسم عليه جهدُ تفكيرٍ
وأماراتُ غضَبٍ
لا تشوبه الكراهية أبداً؟

وددتُ لو أسألها عن تاريخي
عمّا يخبّئ لي الغد
أو لو تهديني إلى مكان
ينْطل فيه أخيراً بحثي
الذي لا أعرف له
من موضوع.

هذه اليد تبدو
وقد وجدتْ لها قراراً
في قلب التيّارات المتعارضة
الزّمن نفسه لم يعدْ
لهُ عليها

مكتبة الفكر الجديد

من سيطرة.

لولا مسالك الدم تجتازها
في كلّ اتّجاه
لحسبتُها
لا أكثرَ من لوحة
من صُنع فنّانٍ بارع
أو جرْمٍ ساقطٍ من فضاء
ما لنا به خبرة.

تَعجن هذه اليد إذْ تتكوّر
طاقاتٍ خبيئة
وتبثّها إذْ تنفتح
جملةَ شعاعات.

يدٌ قد تكون عالجتِ الأرض
أو خاضتْ في لجّ بحارٍ عديدة

مكتبة
الفكر
الجديد

وفي كلِّ غزوةٍ ظافرة
ضاعفَتْ
رصيدها من الغضون.

غضناً غضناً
يرتسم تاريخها الفريد
ونبضةً فنبضة
تنطق بخطابها، هي اليد.

مكتبة الفكر الجديد

كائن العلَن

مُفهرَسٌ هوَ أبداً
كلّ من تاقَ إلى معرفته
يقدر أنْ يجد إلى بواطنه درباً.

لا سرَّ لديه
يتخبّط في استكناهه
محبّو أقبية الدّواخل
النّاشدون
مكمناً يحيل الكائن
لقيةً مثمّنة
لفضولهم المتمادي.

عندما يتحسّر على شيء
أو يعرب عن رغبةٍ مباغتة

مكتبة الفكر الجديد

يتلمّظ رفاقه النّهمون
للأسرار
يحسبون أنْ قد عرفوا
طريقاً
إلى كونه الغامض الذي هوَ
بلا كون.

لو كان يعرف إلى نفسه
ممرّاً
لأبانَ لهم عنه
كاشفاً عن خرائطه المطويّة
هو الجاهل
ما يدعونه سريرةَ الكيان.

مكتبة
الفكر
الجديد

معجزة الصّوت

في صباحات باريس غالباً ما
تحمل لك قهوة الصّباح
روائحَ أهراء طفولتك
هذه التي لم ترَها
من ثلاثين عاماً.
أغنية
لا تكاد تميّز مقاطعها
بإيقاعها نصف المسموع
تأتيكَ كما في حلمٍ مستيقظ
وتحمل لكَ ذكرى أثيرة
لا تقدر على تحديدها بدِقّة.

شيء ما في نبرة المغنيّة
عندما تبلغ من الشّجَن

مكتبة
الفكر
الجديد

ذروةً حاسمة

يقول لكَ

إنّ هذه الأغنية تُكثّف

واحدةً من أثمنِ لحظاتِ حياتك.

هكذا سيظلّ عُمرك

مبعثراً وفي هُيام

ما دمتَ للحظاته العزيزة

لا تلقى من ترجمة

إلاّ في المبهَم من الأصوات

وفي روائحَ تمزج

نارنجَ طفولتك

بسخامِ مدنٍ معبورة

على عجَل.

مكتبة الفكر الجديد

بيت الأشباح

في منتصف ليل الرّوح
يكتشف الشّاعر
أنّ الحياة تدور بمعزلٍ عنه
فينتعل خفّيه
ويغادر بيته
إلى أطراف الحارة تقوده جولته.

بكاملِ الوفاء
يتأمّل بيوتاً سكّانها نيام.
النّور الآتي من إحدى النّوافذ
يُشعره بأنّ روحاً شقيقة
تصارعُ الأرقَ مثلَه
يودّ لو يبعث لها بسيرَنادة(*)

(*) أغنية يُنشدها العشّاق تحت نوافذ عشيقاتهم.

مكتبة الفكر الجديد

أو يسألها عن بواعث السّهر
الذي تبدو مقذوفةً إليه
دونَ اختيار.

على مصطبةٍ معزولة
يجلس الشّاعر ما تبقّى من اللّيل
منتظراً أن يعيده الفجر
وحياؤه أمامَ المارّة
إلى بيته الذي لم يعدْ
بيته حقّاً
بل منزل أشباحٍ متصارعة
من أجل خاتمٍ وقعَ في البئر
البئر التي لم توجد قطُّ
بل تنتصبُ هنا مجازاً
للسعي وراءَ لا شيء
وللولد الضالّ
النّاشدِ الضّياعَ بأناقة.

مكتبة
الفكر
الجديد

شِراك الذّكرى

لا أحدَ من حرائقكِ سيَسلمُ
يا ذاكرة
تدور دائماً حول محورٍ بذاته
وباشتعالها المستديم
تفني كلَّ ما يتبقّى
من صُوَرٍ فقيرة.

من فصول عُمرٍ شاسع
من مواسمه المتوالية
لا تتمسّكين إلاّ
بِفَصلِ طفولة
شاءت الصّدفة أن تأتي
سوداءَ كأغمق ما يكون

مكتبة
الفكر
الجديد

سوادٌ في العالَم.

نُغمض الأعينَ عن هذا الفصل
نتدرّع إزاءه بشتّى
صنوفِ الأحلام
لكنْ لا فائدةَ تُذكَر.

لو كانَ من تسويةٍ ممكنةٍ
يا ذاكرة
أو كانَ من سلْمٍ ممكن
لما بكيتُ أمامكِ سحابةَ أيّامي
مذعوراً من الدّمع وهو يجري
حتّى ليبلّ جميع كتبي
ويُخجلني
أمامَ الأجنّة القادمة
أجنّة أبنائي.

مكتبة الفكر الجديد

أوديسة أختي

ردَمتْ سلطة البعث في العراق صفوفاً من المَدافن تتوسّط مقبرة النّجَف. عبّدتْ في مكانها طرقاً توصل دبّاباتِ النّظام بأكثر سهولةً إلى مخابئ المنتفضين. كان بين المدافن قبرُ صهري المقتول في الحرب في ثمانيةٍ وثمانين وتسعمائةٍ وألف. قبل أن يكتمل هذا العدوان على سلالات الموتى، ذهبتْ شقيقتي البِكرُ صحبةَ نساءٍ أخرَياتٍ كانت قد رُدِمَتْ مَدافنُ أزواجهنّ. بمعاولَ مستأجرَةٍ، بل بالأظافر أحياناً، رحنَ يبحثنَ عن شواهد القبور المطمورة. كلّ مَن اهتدتْ إلى رُفات زوجها الحبيب نقلتْه إلى قبرٍ آخر.

أيّاماً والأخت تبحث عن الشّاهدة. صارتْ ساكنةَ القبور، لا تعود منها إلاّ عندما يوقف الظّلام إمكانَ البحث.

هذه الأوديسّة الظّافرة في أوقيانوسات التّراب بحثاً عن رفات البعل المقتول قامتْ بها شقيقتي، يَحميها اللّقب المُرائي الذي

مكتبة الفكر الجديد

خلعه النظام على كلّ مَن كانت تُجلّلهن فاجعة كفجيعتها: «حرَم الشهيد».

بِحدسها الأنثويّ أدركتْ شقيقتي حكمةَ اليونان القديمة التي يُطنب في الكلام عليها هوميروس: ميتٌ بلا قبرٍ معلومٍ ولا شاهدةٍ هو أبداً غريبٌ، لا راحةَ لروحه تُرجى ولا انتهاءَ لِعَنائه بين الأموات.

وعندما أُعدِم من أبناء العمومة في أعقاب انتفاضة الجنوب خمسةٌ، شوهدتِ الشّقيقة وهي تتفرّس النّائحاتِ بنظراتٍ طويلةٍ صامتة. أدرك الجميع آنذاكَ أنها قد تَبدّدَ كاملُ مخزونها من الدّمع.

فاجأها صَممٌ قد يكون جاءَ من أثر الصّدمة. أقتني لها في عمّان جهازاً لتقوية السّمع «من آخرِ صيحة». ترميه بعيداً عنها وتقول: «ما تريدني أن أسمع؟»، زاعمةً أنّه يبعث في الأذنين وشوشة لا تحتملها هيَ. أُخمّن أنّ عالَماً كهذا الذي عرفتْه في سنوات الحرب ما عاد ليستحقّ منها لحظةَ إصغاء.

كذلك هي فصاحة أختي. في سيادتها الكبرى على الألم، لا يندر أن تضحك. لكنْ حتّى في الضّحك تبدو لي صورتها الصّادقة هي التالية: كائن متمركزٌ في نطاقِ تعبه لا يحيد عنه قيدَ شَعرة.

مكتبة الفكر الجديد

عن الموتى

«لديَّ موتى كثيرون»

راينر ماريا ريلكه

موتايَ الكثيرون
أرفض أنا أن أدفنهم
في المَعازل الهادئة للأموات
بل أحتفظ بمُحيّا كلٍّ منهم
في حرارته الأولى ودفقهِ الأصيل
رافضاً الزّوال مترفعاً على الصّمت.

إنْ كان الموتى لا ينطقون
فأنا غالباً ما أشغلُ مكانَ الميت
وبكامل الطّواعية أكون له
لسانه، شفتَيه.

في ليل الغرفة يتعالى أحياناً

مكتبة الفكر الجديد

نشيجٌ صامت
أو تُعزَف في الفراغ موسيقى
أعرف آنئذٍ أنّ أحد موتاي
هاجته فجأةً رغبة البكاء
أو استيقظَ فيه
مسعى أورفيوس.

بلا تطيُّر
ولا وسواس
للغائبين أَترك
مكانهم إلى مائدتي
وفي الليل
أملأ الجِرار مياهاً وفيرة
ومُنعشة
تبلّهم من سقَمٍ وتُبلّل
شفاههم الظمأى.

مكتبة
الفكر
الجديد

تعاويذ للسائر الوحيد

للسائر الوحيد
طرُقٌ لا تُبصَر
إلى عواصمِ القلب تُفضي
بأسرعَ ممّا تفعل
صابياتُ الرّياح.

السّائر الوحيد
بخطوةٍ واحدة
يَجوز قارّاتٍ متناهية
وكأصحاب الكرامات
يكون هنا وهناك
في آنٍ واحد
ناطقاً بغير لسان
مُبصراً بأكثرَ من عَينين.

مكتبة
الفكر
الجديد

مَن أراد استبقاءه
في منعطفِ مُحاوَرة
أو على هدُب الغاب
تفاداه السّائر الوحيد.

في الوصول لا يكمن هدفُه
في السَّير تتأسّس له أوطان
لا حروبَ فيها
في خطوهِ تقوم
هويةٌ ليس تعرف الانقسام.

السّائر الوحيد
لِيَكُنِ الغابُ به رحيماً
فيدلَّه على مَفارجه الضّوئيّة
ولْيسكبِ النّدى العالقُ في ذوائب الشّجر
على جراحه
بلاسمَ ما لها نضوب.

للسائر الوحيد

مكتبة
الفكر
الجديد

جرحٌ ناغر
في ذاته يحمل
أسبابَ سعيره المستديم.

السّائر الوحيد
على عدَمهِ ينتصر ألفَ مرّة
ثمّ مِن عدَمِه ينبعث ثانيةً
عدَمُه البدئيّ.

يا أصحابَ السّائر الوحيد
إنْ هوَ مِن بعيدٍ ناداكم
فاحفظوا عنه مأثرةَ صمته
وإذا ما
في عرْض المسافة
لوّح لكم بيَدٍ مضطربة
فلتعذروه
آفة الهُيام تُحْدِث فيه
أحوالاً عجيبة.

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

III

هكذا أُعيد ابتكاركِ يا أريافي

(٢٠٠٥)

مكتبة
الفكر
الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

-١-

في مساء القرية الأرجوانيّ
شمسٌ مطبوخةٌ على مهلٍ
تتشبّث بناصيةِ السّماء
رافضةً الغروب.

هلاهلُ بعيدة
تعلن عن عرس.
في منزل الأمّ صيحاتٌ مرتجلة.
بأصابعها الممهورة بالحنّاء
تودّعُ الخطيبة
سنواتِ عزلتها بنشيجٍ حقيقيّ.

لا حدودَ للأفق. نجمةُ الرّعيان
تغمز ببالغ الدّعة

مكتبة الفكر الجديد

لصورتها المنعكسة في الماء.

شبّابة الرّاعي ما كفّتْ عن الأنين
لا ندري
ما يتحسّر عليه سائق القطيع.

مكتبة الفكر الجديد

- ٢ -

حمَلٌ يثغو
فراشةٌ تئزّ في الجوّ الحالم
مشاعلُ جوّالة
تنشر على مدى الرّيف نورها البرتقاليّ.

جذعُ نخلةٍ نحيفٌ هو جسر القرية
بخفّةٍ يعبره الأطفال والشّيوخ
من ملمس لحاء الشّجرة الحائل
تعرف القدمُ طريقها بيقين.

نافثاً دخانَ سيجارته
يتابع أبي دوائرَ الدّخان
يحسبها كتابةً في السّماء
تكثّف بلغةٍ ما برحتْ مستغلقة
أسرار الكيان.

مكتبة
الفكر
الجديد

- ٣ -

تنشر المرأة ثياباً ملوّنة
ترتّبها في قوس قزَح
الفلاّح يحصد كفاف يومه
وسائرُ الحقول الصّهباء
تنتشر عليها أسرابٌ من الجراد.

في أذُن الشّاعر
تطنّ إشاعة سحيقة في القِدَم
نفْسه تحدّثه عن آثارِ آثام.

أصفرُ هو الأفق. والعاصفة تُنذر.
قطعان الرّعيان
وحدها ترجع إلى الحظائر
الرّعيان منشغلون بحجرٍ غريب
يحسبونه نازلاً من السّماء.

مكتبة
الفكر
الجديد

- ٤ -

أرواح الموتى الصّغار
ما فتئتْ تُطلق صيحاتها.
ندّاهة لا تملّ من العويل هي الرّوح.
إن أنتَ أضعتَ روحكَ، يقولون،
فلتبحثْ عنها في الطّبقة الرّقيقة
التي تتوسّط الماء وقيعان الأنهار
هناك تُطلق الرّوح المنفصلة
نحيبَها الخافت الأبديّ.

عصائبُ سوداء
تحيط بهالة القمر البدر
طفلة الجار الميّتة منذ أعوام
تظهر من النافذة وتختفي
«لا للا سببٍ تزورنا أرواحُ الموتى»،
تقول الخالة المتجهّمة
وتروح تُمعِن في التّخمين.

مكتبة
الفكر
الجديد

- ٥ -

صيّادون
يملأون المسالك الوعرة
بجثثِ الخنازير البريّة
جواميس تدوس على شتلات الورد
الشّاعر النّاشئ يعانق نخلةً منفردة
ويقول: ماذا لو أحسبُها فتاتي؟
رهطُ جراء
يركض القهقرى ونباح ذئاب
يسدل على القرية كآبةً مقدّسة.

الجوّ مجلّلٌ بالغموض
أزيز محرّكاتٍ مقتربة
يوهم بغزوٍ آليّ. منذُ زحفتِ المدينة
إلى مشارف الرّيف

مكتبة الفكر الجديد

بأشيائها المصنّعة وغرائبها
والأسلاف
يبعثون برسائل إنذار
ملوّحينِ بعُقمٍ جارف
سيشمل الأبقارَ والنّساء.

مكتبة
الفكر
الجديد

- ٦ -

طويلاً
راقبَ الفتْية عينَي الميت
مِنهما كان ينبعث حزنٌ ولا أشدّ
شيء ما في زاوية جفنَيه الأيسرَين
ينبئ بأنّ صراعاً مع الموت
كان قد عاش بكيانه كلّه
في اللحظات الأخيرة.
«لا يبدو أنّه ارتضى موتَه»، يُعقّب
واحدٌ من الشّيوخ
ملخّصاً الموقفَ كلّه.

مكتبة
الفكر
الجديد

ـ ٧ ـ

حُمرة الورد وزرقة السّماء
دقيق الأحلام السّائح وأبخرة الأنهار
الطمْيُ المشتعل في قيعان الجداول النّاشفة
أيّ مستقبلٍ يطلعُ من هذا كلّه؟،
يتساءل الصبيّ متفلسفاً.

تطيُّرات
تعبر فضاء القرية وتجعل النّساء
يعتصمن في بيوتهنّ ثلاثة أيّام متوالية
كان ينبغي أن يُعقَر ثور
لتخرجَ القرية من بُهوتها المفاجئ.

مكتبة الفكر الجديد

- ٨ -

ذلكَ العمُّ الذي لم يتهيّأ له
أن يقاتلَ الإنجليز قبل أربعين عاماً
ينتحي في آخر المَضيف ركناً قصيّاً
وببالغ الندمِ يزدرد أيّامه.

يحلم بفرصةٍ قادمة
تُعيده بين إخوته الكبار رجلاً.

معركته القادمة إنْ حصلتْ
سيخوضها ولا ريب
مستنداً على عصاه
أو محمولاً على محفّة الشيوخ.

مكتبة الفكر الجديد

«يكفي أن أشمّ رائحة بارود»،

عبارته الوحيدة

بها ينغّم منذ أربعين عاماً

سحابةَ نهاره الطّاعن في الأحلام.

مكتبة الفكر الجديد

- ٩ -

طيلة خمسين عاماً
كان جدّي
ينتهج المسلكَ الشّجريّ ذاته
الفاصلَ بين بيته ودارةِ إخوانه.
أشجارٌ زرعَها بيديه
تؤطّر نهجه عن اليمين
وعن الشّمال.
بين أشجار الرّمان والتّوت
ينتصب شجرٌ بلا رائحة
يقول هوَ إنّ عبقه النفّاذ
يملأ خيشومه
لأنّه هوَ زارعُه
ولكنّه ضنينٌ بأريجه

مكتبة الفكر الجديد

على الغرباء.

كذلك هوَ جدّي
الذي لم أعرفه
والذي أستعيد هنا صورته
مهتدياً بكلمات أُمّي.

مكتبة الفكر الجديد

- ١٠ -

في قلب مقبرة القرية
يعْقد الفتْية مهرجانهم الرّبيعيّ
يسقون القبور من مائهم البارد
وعلى الشّواهد يعلّقون
أكاليل ريحانٍ وزهورَ خشخاش
ثمَّ في آخر الحفل يُرخي
سدولَه النّعاس
على الصّبْية المحتفلين.

الجمهور النّائم لا يكاد يتميَّز
عن ساكني القبور تحتَه.
ذهولٌ واحد
وعطلةٌ للشّعور مُقتَسَمة.

مكتبة الفكر الجديد

غيرُ واحدٍ يفكّر
بتبادلِ موقعه والميْت
ولن يكون ذاك بطَراً
بحياةٍ يحسبها الجميع
كأهنأ ما تكون.

مكتبة
الفكر
الجديد

- ١١ -

الفتاة المسكونة
بأوجاع جنسها التّائق للصّحبة
ترفس في الرّمضاء مُطلِقةً
صراخها القويّ.

بالعصيّ يضربونها تعزيماً
والفتاة تصرخ:
«إنّه في جسدي لَمُقيم».

فجأةً صحوَها تستعيد
تبتسم من هذيانها وتقوم
براءً من كلّ وسوسةٍ
ومنيعةً على الألم.

مكتبة
الفكر
الجديد

- ١٢ -

أمامَنا يركض الخنزير البريّ
وبالعصيّ نركض نحن خلفه
لم تكن رغبتنا أن نصرعه
بل الجزْي وراء قوّةٍ غاشمة
تطويع الخوف
ذلك ما كان يحدو بنا إلى الرّكض.

في ذروة تعبه
توقّفَ الحيوان ملتفتاً إلينا
كان في نظرته شبْه استسلام
فرجعنا أدراجنا شاعرين
بتحوّلٍ طرأ على كلٍّ منّا.

مكتبة الفكر الجديد

لم أقلْ

إنّ كلاًّ منّا

كان يستعجل البلوغَ ويمضي ليلَه

متحسّساً ما بين فخذيه.

مكتبة
الفكر
الجديد

- ١٣ -

بين شجرتين
طلعَ لي مرّةً ثعبانٌ ضخم
راحَ يتفرّسني بعينين هادئتين.
كان بالضّبط يتفحّصني
يزِنني بنظرة عادلة
كمَن يريد معرفة مَن كنت.
بكاملِ الهدوء
نهضتُ من جلستي القرفصاء
وبالهدوء نفسه
ماشياً القهقرى عنه ابتعدتُ.
بوداعةٍ هائلة
بقيَ الثعبان يتأمّل خطواتي
كما لو كان يغبطني
بل يغبط في حقيقة الأمر نفسَه

مكتبة الفكر الجديد

لأنني بثبات الطّفل
وهبتُه فرصةً نادرة
لينتصرَ
على سَورة السمّ التي كانتْ
ولا شكّ متصاعدةً فيه
كزئبقِ مِحرار
تُبقيه برودةٌ معيّنة
واقفاً لا يريم.

مكتبة
الفكر
الجديد

ـ ١٤ ـ

على الشّجرة جوقةُ عصافير
يبدأ واحدٌ بالغناء
وعندَ جملةٍ معيّنة
يتوقّف
ليتلقّفَ الجملة طائرٌ سواه
ويُنمّيها.

بالغَ التلاحم متماسكاً
كان ذلك اللحن المتسلسل.

عندما تبتعد الجوقة
يتواصل شذْوها في دمي.

مكتبة الفكر الجديد

- ١٥ -

عمياءُ هيَ القبّرة
- يقول الأسلاف -
من فرط الوجد.

نازلاً في الفضاء
يرسم العندليب
دوائرَ مكتملة
طالما جعلتْني أتساءل
عن سرّ رقصهِ الحلَقيّ هذا.

رصاصةُ صيّاد
لن تمحوَ الدائرة الأخيرة
المنقوشة في كبد السّماء
بِحبرٍ حقيقيّ.

مكتبة
الفكر
الجديد

- ١٦ -

جارُنا الميت
رفيقي في ألعاب الطفولة
ما برحَ يشغل مكانَه
في ذاكرة الحقول.
خاطرُ الفضاء يتحدّث عنه
وحصباؤه الملوّنة به تُذكّر.
في اللّعب نترك له مكاناً
ولدى اقتسام قِطَع الحلوى
المسروقة
من حانوت القرية المشرعة أبوابه
نحسب له حساباً.
الأغنية التي لا تُقلَّد
هي أغنيته

مكتبة الفكر الجديد

وفي هذا أيضاً
عرفَ أن يُبقيَ لنفسه
مساحةً شاغرة
إلى الأبد.

مكتبة
الفكر
الجديد

- ١٧ -

في الدّرب المُفضي إلى العراء
حيثما امتدّ ما كنّا ندعوه
بالعالَم المجهول
تنتصب مقبرة القرية.

بعض قبورها كان
منزوعَ الشّاهدة حتّى ليُذكّر
بفمٍ شاسع
فاغرٍ إلى الأبد
يصرخ في مطلق الزّمان جوعَه.

هذه الأضرحة المتثائبة
بِرَدمها لا أحدَ فكّر
إلى الأبد ستبقى

مكتبة الفكر الجديد

على سعتها مفتوحة

لا أحدَ ليُسكتَ خطابها الصَّموت

وشكواها الأليمة

يتلقّاها الجميع مثْلَ برَكة.

مكتبة
الفكر
الجديد

- ١٨ -

لم يكنْ ذلك عواء كلاب
بل شبْه نشيدٍ جنائزيّ
تطلقه الحيوانات في سُعارها الغريب
باكيةً لا أحد.

ترمق القمرَ بنظرةٍ شرسة
ويجنّ جنونها وتبدأ
عواءً طويلاً
يشرف عليه قائد أوركسترا
لابدٍ بين جموعها المتراصّة.

خائفاً على القمر يفكّر الطفل:
«كلّ هذا العواء قد يُرجِف في اللّيل قلبَه».

مكتبة الفكر الجديد

- ١٩ -

بِثباتٍ يتواصل
أزيزُ حشرات الرّيف
يرسم في الفضاء المحتقن بِفحيحِ
كائناته المتعايشة على مضض
جُمَلاً موسيقيّة
تهيمن عليها النبرات الحادّة
وتكاد تسمع فيها أحياناً
ما يشبه صريرَ منشارٍ هائل
يقبض على الكون كلّه
تحتَ رحمة أسنانه المصفّحة.

تحبل الطّبيعة في المساء
برُعبها الغريزيّ
وفي الصّباح تهدأ

مكتبة الفكر الجديد

عندما يستعيد عافيتَه
شذوُ أطيارها الوفيّة.

أزيزٌ وشذو
شذوٌ وأزيز
يتعاقبان
تعاقبَ النّهار واللّيل
وفي خيالِ الطّفل المسحور
يتبادلان
دورتين
من الحبور والذّعر الهادئ.

مكتبة
الفكر
الجديد

- ٢٠ -

حصانٌ أعرَج
بخطواته غير المنتظمة
على تربة الحقل النّاقعة بالماء
يرسم آثاراً غريبة.

ببالغ التّمهّل تواصل النّسور
معراجها في الفضاء
وببالغ الحسْم تنقضّ
على قلب الفريسة.

أحياناً
يقطع النّورس سباحته المتّسقة
وفي هندستها شبْه المدروسة
يُحدث خللاً

مكتبة الفكر الجديد

قد يكون محسوباً أو أملته
خِفّةٌ مفاجئة.

البطّ أغنيته خنّاء
الدُّوريّ يتخيّر لِقوتِه
ناضجَ الثّمار
وخارجَ إرادة المجذّفين
يمخر القارب في عرْض الماء
عارفاً وجهته المقرّرة.

مكتبة
الفكر
الجديد

- ٢١ -

في غنائها المضطرد
نهاراً بأكمله
تُفرغ المرأة سلّتها
من الهموم.
عندما تحسب أنْ قد أخلَتْ
كاملَ جعبتها تستأنف الغناء
بالقدْر نفسه حزيناً
وباكياً بالقدْر نفسه
ناطقاً هذه المرّة بِغَناء الأسلاف.

مكتبة
الفكر
الجديد

- ٢٢ -

جارُنا الذي في رحلة صيدٍ
صرعتْه طلقةٌ طائشة
أتخيّل ولعلّي لا أخطئ
تفاصيلَ مساره الكثيف
من جهة الأحياء إلى مُنقلب موته.

في لحظات الصّحو القليلة
التي كانت قد بقيتْ له
أراحَ من التّجذيف قبضته الصّلبة
وتركَ القاربَ يتهادى
في عرض النّهر
الذي بدأت قطراتٌ من الدم
تخضّبه بأرجوانها العنيف.

مكتبة
الفكر
الجديد

ذلك الحنين المبهم

طفِقتْ صوَرُ طفولته تتداعى

في خاطره بكامل العذوبة.

أبصرَ السّماء الرّائقة المرأى

تطلّ عليه من بين الأغصان

الزّرقة النآعمة بدتْ له

لأوّل مرّة

فادحةً وعجائبيّة

وعندما دنا اللّيل

بدا له القمر مكتملَ اللّغز،

صندوقاً من الألم يرقى

في كبد السّماء

يُشيّعه عويلٌ جنائزيّ

تطْلقه نساء القرية وكلابها الكثيرة.

من أغصان الشّجر

كانت تنهمر خضرةٌ شائقة

تمنّى لو كانت وسادَه الأخير.

مكتبة
الفكر
الجديد

اللّيل نفسه
بدا له شيئاً مادياً
صرّةً غامضةً ومظلمة
تكتنف الكيان
وتعِده بنومةٍ هانئة
ودّ لو استيقظَ الآنَ منها.

ودّ لو يذرف دمعة أو اثنتين
لكنّ الألم كان يزيد صحوَه
ويضاعف فيه الرّغبة
في أن يفهم
ما الذي جاء به إلى هذه الرّحلة
هو الذي كان يعشق خمولَه
ويلذّ له مرأى الأشجار
تحضنها
نظرةُ الكائنِ المتمدّد على العشب.

لم يكنِ الأسف هو ما يشعر به
لا ولا رثاء ذاتِه

مكتبة الفكر الجديد

بل يقينه من أنّ الآلام
إنْ لم تطفئ في آخر الشوط وعيَه
فستكون شيئاً محتمَلاً
لعبةً قد يحذقها
مسعىً قد يكون ماهراً فيه
أو خاطرةً صغيرة.

مكتبة
الفكر
الجديد

- ٢٣ -

في المساء تعْقدُ الذئاب
حلقتها المعهودة
حول نقطةٍ بذاتها تحتشد
وتُطلق عواءها الجنائزيّ
ثمّ تتفرّق وتبدأ بالعدْو
لتعودَ من بَعدُ إلى ذاتِ النّقطة
وتستأنف عواءها الطّويل.

تجتمع الذّئاب
فتشعر مثلَنا بخطورة الشّبيه
وما إن تنفرد حتّى
يهمزها إلى الشّراكة
جوعُنا القديم نفسه.

مكتبة الفكر الجديد

- ٢٤ -

«هل للأسماك إحساسٌ بالزّمن؟»

جاك دريدا

قبلَ أن تموت
السّمكةُ المنقذفة خارجَ الماء
تحرّك خياشيمها بانتظام
وتُوسّعها توقاً إلى الهواء
وفي اللحظة المشخّصة
التي تفارق الحياةَ فيها
تكون الحركة طويلةً ومنهَكة
تذكّر بحسرةٍ عميقة
يطلقها امرؤٌ يُحتضَر.

وحدَه والدي بين الجميع
كان يعتقد بذاكرةٍ للأسماك

مكتبة
الفكر
الجديد

ويفترض لها معرفةً بالآلام.

مراراً أسمَعَهُ أعداؤه

كلاماً كهذا:

«مَن اعتقدَ بذاكرةٍ سمكيّة

ما ربحَ في حياته غزوةً واحدة».

مكتبة
الفكر
الجديد

ـ ٢٥ ـ

في مرورها تكنس العاصفة
بيوتاً كثيرة.
تمرّ أوّلاً بكوخ المجنون
المتوحّد
فيمتزج أزيزها بصراخه
عابراً الأجواء.
في طريقها تقتلع
أشجار الزّان الضّخمة
ومن أوراقها المذهّبة
تصنع مهرجاناً جوّالاً.
تحمل العاصفة إلى العجوز
المختبلة
مزيداً من الهذيان
والشّيخ المترهّل تُذكّره

مكتبة الفكر الجديد

برحلاتٍ بحرية
قام بها صبيّاً
وعندما تبلغ العاصفة
مزارَ الوليِّ صاحبِ الكرامات
تنحني لهنيهةٍ إجلالاً
ثمّ تواصل زحفها الدائريّ
خرطوماً من الهواء والتّراب
يخيف الكائنات والأشياء
وكلّما مرّت العاصفة
وبقدرِ ما
تُخلّف وراءها بين الأشجار
من قرابينَ وضحايا
يحسب الصبيّ أنّ وعيه
قد كَبِرَ
واغتنى بصورةٍ عنيفة
أو اثنتين.

مكتبة الفكر الجديد

- ٢٦ -

صورةً صورةً وفكرةً فكرة
يَحسِبُ الصّبيّ سنيَّ نُضجه
باتَ لا يتقدّم صوبَ الأشياء
إلاّ بقدرِ ما تعِد به
من كشوف
المفاجأة صارتْ هيَ
شرطَ وجوده الوحيد
عندما لا يبقى ما يُدهشه
يشعر بشيخوخةٍ ثقيلة
تنشر على كتفيه معطفها الأسوَد.

مكتبة الفكر الجديد

ـ ٢٧ ـ

متخفيّاتٍ بين الأشجار
تعرض الفتيات أعضاءهنّ
الواحدة على الأخرى
من بعيدٍ يلمح الصّبيّ المتلصّص
أكثر من جزّة ذهبيّة
أسفلَ البطن تكشف عنها الفتيات
ثمّ يخفينها على عجل.
هذه الصُّوَرُ ستغذّي أحلامه
يودّ لو يصنع منها لِجبينه
هوَ الشّاعر المبتدئ
إكليلَ غار
يودّ لو عرفَ ما تُخفيه
أو لو صارَ هوَ حارسها الأوحد.

مكتبة
الفكر
الجديد

ـ ٢٨ ـ

بِدِقَّةِ مَسّاح
تقضم اليساريع أوراقَ الأشجار
وتترك نهاياتها المشذّبة
جميلةً كزُخرف
هكذا لا يغادر قدامى الفرسان
ميدانَ قتال
دونَ أن يدّعوا فيه
لمسةً مُحسِنة
هي دمغة مرورهم بالمكان
وإلى القادمين هيَ رسالتهم.

مكتبة الفكر الجديد

- ٢٩ -

من حقلٍ إلى سواه
يتنقّل الصّبيّ
ومن مخبأٍ إلى آخَر
يفحص بعينيه وأذنيه
يتشمّم الطّرُق مستنفِراً
كافّة حواسّه.
بكاءٌ سرّيٌّ يتصاعد
لا يدري من أيّة بقعة
ذاهباً في كلّ اتّجاه
من عروق النّخل يتفجّر
ومن ميازيب الغرَف الطينيّة
ينهمر
لا يدري الصّبيّ أيّ حلْقٍ يُزجيه
ولا أيّة عينٍ خفيّة

مكتبة الفكر الجديد

بهِ تفيض
لعلّه ضمير الأرض المشقّقة
يُعرب عن نفسه
بمثْل هذا النّواح شبه الصّامت
من حينٍ إلى حين.

مكتبة
الفكر
الجديد

- ٣٠ -

في العيد عقروا ثوراً كبيراً
برائحةِ شوائه
تسربلتِ البيوت.
من خصيتَيه أكل الأكابر
ماسحينَ أصابعهم بأطراف الشّفاه.
الصّغارُ قيل لهم ألاّ يقربوه
في اللّحظة السّابقة لِذبحه
لأنّ نظرته المُعاتِبة
إنْ هيَ نفذَتْ إلى داخلِ طفلٍ
فلا فكاكَ له منها بعد ذاكَ أبداً.

مكتبة الفكر الجديد

إشـــارة

نُشِرَتْ صيغة أولى من «هكذا أُعيد ابتكاركِ يا أريافي»، تحت عنوان «ريفيّات»، في مجلّة «الكرمل»، العدد ٨٥، خريف ٢٠٠٥، وظهرتْ قصائد أُخرى في الملحق الثقافيّ لجريدة «النهار» وفي «السّفير الثقافيّ».

مكتبة الفكر الجديد

الفهرس

ديباجة ٥

I ـ مِعمار البراءة وقصائد أُخرى ٧

عودة ٩

جلود مستعارة ١١

عراقيّون ١٢

هجرات ١٥

شتات ١٦

نقاهة ١٧

غرفة ١٩

هزيمة النّسر ٢٠

طفولة (١) ٢١

طفولة (٢) ٢٣

الذّكرى ٢٥

مكتبة الفكر الجديد

ابـواب ٢٧

أجفان الوردة ٢٨

فتـوّة ٢٩

إلى رفيق ٣١

صورة ابي في شبابه ٣٢

الأرض المُطْلَقة ٣٤

إلى رقيب ٣٥

مائرة ٣٦

أغنية ٣٧

سباحة ٣٩

سوداويّة ٤٠

مِعمار البراءة ٤٢

جدران ٤٤

مرثيّة صهري ٤٥

الأصدقاء ٤٦

الوقت ٤٧

دُعابة ٤٩

مكتبة
الفكر
الجديد

تجريد ٥٠

فتوَة (٢) ٥٢

سجون ٥٣

إلى صديقة ٥٤

الزّمن المستعاد ٥٥

باقات ٥٧

لَسْع الذَكرى ٥٨

منزل الآب ٥٩

جَنوب ٦٠

عازفة القيثار ٦٤

ارتطام ٦٦

اللّغز ٦٩

II ـ دراسةُ يَدٍ وقصائد أُخرى ٧١

سعادة ٧٣

القادمون ٧٦

عن العبور ٧٨

المنفيّون ٧٩

مكتبة
الفكر
الجديد

في الغناء ٨٠
الانشوطة ٨٢
أجنّة ٨٤
رفْقة ٨٦
مزمار الاعصاب ٨٨
في الكتابة ٩٠
بساطة الأغنية ٩١
الصّورة ٩٣
في الطّريق ٩٥
تباشير ٩٧
صحراء ١٠٠
عن الجهد ١٠٣
ليليّة ١٠٥
الخروج ١٠٧
دراسة يَد ١٠٩
كائن العلَن ١١٣
معجزة الصّوت ١١٥

مكتبة
الفكر
الجديد

بيت الأشباح ١١٧

شِراك الذّكرى ١١٩

أوديسّة أختي ١٢١

عن الموتى ١٢٢

تعاويذ للسائر الوحيد ١٢٥

III ـ هكذا أُعيد ابتكارَكِ يا أريافي ١٢٩

مكتبة
الفكر
الجديد

هذا الكتاب

يُنفق الشّاعر الجريح نصفَ عمره ناشداً السّلوان. يبحث عنه في كلام الأصحاب، وهُم في الغالب الأعمّ مهرَةٌ في تفتيق الجراح. أو يلتمسه من الصّمت يَهمي عليه كالنّدى العذب تارةً وعلى جراحه يسّاقط كالمِلح طوراً. عندما يتحقّق الشّاعر الجريح من حقيقة زمنه الضّائع تختبل في الرّأس دُنياه. يحسب الموتَ قابعاً في انتظاره، ويخجل من الأمّ المنسيّة، ويصيبه هوَسُ الأرقام: يعدّ خساراتِ ماضيه ويتهجّى، كلمةً كلمةً، كتابَ قلبهِ العريضَ غيرَ المقروء. ثمّ ينتصب، إذا كان شاعراً بحقٍّ، على قائمتَين من خياله الجموح ويعدّ العدّة لاسترجاع الزّمن.

لوحة الغلاف: روديغر بنسكوفر

مكتبة
الفكر
الجديد